حديث الشهر

جرجس كنعان

دعبل الخزاعي

٣

جرجس كنعان

دعبل الخزاعي

- ٣ -

حديث الشهر

سلسلة كتب شهرية تقدم فى مطلع كل شهر كتاباً

صــــدر منها

١ ـ مثلهن الأعلى خديجة ام المؤمنين — للعلامة العلايلي

٢ ـ أبو جعفر النقيب — الدكتور مصطفى جواد

الكتاب القادم ـ ٤ ـ

الصادق ملهم الكيمياء

يقـــدمه

الدكتور محمد يحيى الهاشمي

يصدر فى مطلع الشهر القـادم

المقدمة:

عهدي بدعبل قديم ، يتصل بزمن الصبا والطلب . ولم يكن فيه للنقد متسع ولا للتدقيق مجال ، فكان مرشدونا اذا عثروا على قطعة قديمة ، قدسوها لعصمة الاوائل وحرمة النقل . وكانت كتب الادب تضيق بدعبل فلا تظهر منه الا هذا الوجه المكمد وهذا الالم الممض.

وكنت ارى في هذه التائية الكبرى - مدارس آيات - سمو فكر ، وصفاء سريرة ، وقوة عقيدة ، لا يمكن أن تكون لدعبل ، (الهجاء الخبيث اللسان)

ولما اشتد ساعدي وبعد موقع بصري كانت مباحثي تتحطم على صخرة الحقيقة المؤلمة ، فليس لدعبل من مرجع غير كتاب الاغاني ولا ادري لماذا صب هذا على دعبل جام غضبه ، وعرضه هذا العرض الكريه النابي ، الذي حداني الى اهماله اهمال من لا أرب له فيه .

عندما نشرت كتابي - الآداب العربية وتاريخها - مع ان مناهج المعارف خالية من ذكر دعبل - لم اجد بداً خدمة للحقيقة والتاريخ من ذكره . ناقداً قدر المستطاع ، فرأت بعض المجلات ان تنقل ذلك الفصل وتعجب به. لجدة النشر اذ لم يكن فيه جديد يوضح حقيقة .

ثم أطلعت على ما كتب عنه المعاصرون في المجلات الأدبية اللبنانية والمصرية فلم ازدد به معرفة . اذ اثر ما كتب الاصفهاني هو الذي يحفزهم واذا هم تبع لمن تقدمهم .

واتصلت بسلسلة « حديث الشهر » فباحثني شيخها (١) العلامة المفضال بالأمر فتريثت لاراجع مصادر البحث في دعبل واقف على الحقيقة .

فكان وايم الحق ان المثبطات من الادباء والعلماء اصدقائي غدت تترى ، فأجابه مرات : مالك ولدعبل؟ وبعضهم يصرخ: الشيخ دعبل؟! سود الله وجهه - واكثرهم يردف اسمه بالالقاب التي اسبغها عليه صاحب الاغاني : الهجاء الخبيث اللسان. ثم التعقيب: لم يسلم منه خليفة ولا وزير ولا قائد حتى قرن بالحطيئة فهجا اهل بيته ولم تنج منه جاريته ولا اخوه .

صمدت لها وقلت : عجيب ! ما لهذا الشيخ دعبل يتعقب الهجاء ويرمي عن قوسه المرنان فلا يخطئ ؟ فكان الجواب صريحاً . الاذى طبع ، والهجاء خلق في دعبل وقد ضرب به بعضهم مثلاً للهجاء الطبيعي . هذه شنشنة قديمة اعرفها في من كتب عن دعبل فلأنظر اليه

---

(١) يعني بذلك سيدي الوالد الشيخ عبدالله السبيتي صاحب هذه الفكرة والعامل الأول في اخراجها . عبدالأمير

بغير هذه العين . فليس له كما كان لبشار من قبح الشكل ، والعمى والتكالب على الدنيا ورميها بكل قبيح ، باسم الامراء والحكام وكل من يتصل بهم . وليس له من خلقه وخلقه ما لابن الرومي ليغيظه كل شيء ، ويفقد صوابه عند كل حادث . ولا مطمع له في امارة أو تسنم اي منصب كما يفعل غيره ، كما انه غير مغمور النسب كالحطيئة ، فهو من خزاعة ، وخزاعة ملء الارض في الجاهلية والاسلام ، قديماً وحديثاً .

أتكون شيعيته الدافع لذلك ؟؟ ما اكثر الشيعة في زمن دعبل ! وما اشهر شعراءها . حتى كان كل شاعر او كل كاتب يتشيع ولو الى حين . والشعراء لا يثبتون على عقيدة واحدة فما لهذا الشاعر وهذا الاصرار المميت ؟!

طبائع الناس جد مختلفة . فهؤلاء الالى يستسيغون السهولة ولين العيش ، قد يوفقون وقد لا يوفقون فيرمون بزوايا الاهمال ، كما ان من اولئك المجاهدين الابطال من يثبت للعاصفة الهوجاء كالجبار رافع الرأس ، ومنهم من ينحني امام كل ريح . فمن ايهم كان دعبل ؟ .

دعبل شاعر ذو عقيدة . اذا هبت ريح الشعر صدق ، فلا تقف في سبيله عثرة ، خليفة كان خصمه ام سوقة . وعصبية دعبل شديدة

فهو الخزاعي الذي يرى في خزاعـة ملء الأرض ، وامراؤها وحماتها في كل صقع من مصر الى الشام الى العراق الى خراسان . من دور الخلافة ، الى مهاوي القبائل . فهو عزيز الجانب يخشى حتى الخليفة القوي وثبة قبيلته . وما كان موقف الرشيد منه الا لهذه العصبية الجامحة كما تحققت .

اما عقيدته فهي راسخة ، وما اقل رسوخ العقائد في عصر دعبل ! وقد امتد مائة سنة ـ عمر الشاعر ـ وما اشد تفاوت الطباع في القائمين على الامر . بيد ان كل ذلك لم يكن ليهم دعبلا فالشيعة الامامية عنده الهدف والقبلة . وقيام امام يملؤها عدلا لا محالة واقع . وعلى هذا الرجاء الثبت كان يهاجم بلسانه وعصبيته ، وبسيفه اذا اقتضى الامر .

وبالتحقيق رأيت ان مرجع هذا الهجاء هو هذه العقيدة لا غير ، فهي تقوم عنده مقام الجهاد . وهو فرض على كل مؤمن . ولم يمر في ذهن دعبل الفتى ، ولا الكهل ، ولا الشيخ الهم ان هناك فروقاً في معاملته الناس ، فالرشيد ، غير المأمون ، وغير المعتصم ، وغير المتوكل ، وكلهم اذا هضموا حق الائمة ، سواء ، وكلهم يجب ان يساقوا بعصا واحدة . وليس من امام الا ـ امام آل محمد ـ ومن يقول بهذا القول فهو على

حقّ، وسواه ظالم. وهو موضوع هزء ونقمة ولعنة اذا ساق الكلام!

دعبل شاعر . يقول الجاحظ « قال الشعر مدة ستين سنة ، ماذر شارق الا قال شعراً » وبالطبع كان من ابناء الحياة وكان في عصر الرشيد والمأمون عصر ابي نواس ومسلم وابي تمام والبحتري . فلماذا يعيش هذا الدعبل الايد وحده في هذا المحيط الموبوء ؟ لماذا لا يقول غير الهجاء ؟ ولماذا لا يكون له الا هذا اللقب الشريف ؟ (الخبيث اللسان الهجاء) ؟!!

نحن نعلم مما اتصل بنـا من تاريخه انه كان مرهوب الجانب وان الامير الخزاعي عبدالله ابن طاهر عندما مر في ذهنه أن دعبلا دعي في خزاعـة اخـذ على سامعه العهود المغلظة ، وكل ما يحلف به مسلم حتى الطلاق ، ولما عاتبه في ذلك قال ياغبي اترى دعبلا يخشاني وهو لم يخش المأمون ولا غيره من الخلفاء ؟

ولما طلب خصومه ان ينفى من خزاعـة فوجئوا بالصراحة « ان دعبلا هو خزاعة كلها ولو لم يكن خزاعياً لادعوه » .

وبعد ألم يقل دعبل في عصبيته غير نقيضة الكميت ؟ انها كانت كما سمعنا ستمائة بيت ولم نعثر عليها !.

ألم يقل من الغزل غير هذه الابيات التي عرف بها ؟

اين الشباب ؟ وأية سلكا   لا أين يطلب ؟ ضل بل هلكا

ألم يقل في آل البيت الا التائية وما يلمح اليه ؟ .

ماذا كان ينشد كل يوم ؟

أكان يتلهى كما كان يفعل ابن سكره فيقول في هجاء جاريته عشرة آلاف بيت ؟

لم نسمع الا مقطوعة واحدة في تهكمه على جاريته غراب أوغربال ؟

دعبل شاعر متفوق بشهادة شاعر العصر البحتري . فضله على مسلم بن الوليد وهو امير الشعراء . وعندهم انه يجاري ابا نواس وقد بزه !

وشهد المأمون ان دعبلا اشعر شعراء خزاعة ومنهم ابو الشيص ورزين وعلي بن رزين وطاهر بن الحسين وعبدالله بن طاهر وغيرهم . وجميعهم ليسوا بطبقة مسلم وابي نواس وحسب دعبل ان يتبوأ تلك المنزلة . لم نسمع ذكر ابي نواس في احاديث دعبل ولا فيما يحوم حوله وقد يكون هذا طبيعياً فقد يكون ابو نواس مع ميله الى عدم الخطر في الدين ، يرغب في الدنيا ويبعد عن مزالقها الحزبية وقد جرب

مرة فساهم في مشادة العصبية فكان نصيبه السجن .

لماذا لم يسجن دعبل كما سجن غيره ؟!

ألأنه كان يهرب ؟ والى اين يهرب ؟ وكيف يهرب وهو في بغداد وفي الكوفة حتى في خراسان ؟

في هذا الكتيب الذي اعرض : اجتهاد في هجاء دعبل ، ونقل ما اطمأنت اليه نفسي من شعره ، ونقد مارأيته على غير وجهته ، واكثار من روايته الشعر لافتقار الناس الى شعر دعبل ، واظهار الوجه الابيض من هذه الحياة ، والطلوع على العامة بأثر هذه الشدة التي كان يقاسيها اصحاب العقائد .

انا لا ادعي احياء ذكر دعبل فله ، من تأبيته ، ما يخلده في ذهن كل اديب . ولا ادعي اني جلوت كل غوامض ملابسات دعبل فعمر مائة سنة يحتاج الى كتب عديدة وجلد طويل ومراجعات في مهملات التاريخ والآداب ، واذا وفقت الى توجيه من يهمهم الامر في هذه المغلقات اكون قد حققت بعض الامل وما اصدق قول دعبل .

اني وان قلت بيتاً مات قائله ومن يقال له والبيت لم يمت

ثقافة الكوفة

منذ مصرت الكوفة والبصرة ، اصبحتا قبلتي البادية ، وامتازت كلتاهما بالشعر والعلم .

ومنذ اتخذ امير المؤمنين ، علي بن ابي طالب ، الكوفة قاعدة الخلافة ، ظهر الفرق بين المدينتين . فكانت البصرة ومربدها ومسجدها مرجع الاعراب والشعر والكلام ، وكانت الكوفة دار العامل وموضع النزاع الشديد في الآراء ، فهي مقر الخوارج ، ومرجع الشيعة ، وفيها اضطرمت الدعوة العباسية ، وفيها رأينا علماء الحديث والفقه ، وبين هذه المنازعات الشديدة كانت دعاة الى الافكار الحرة ، وقام الاجتهاد على ساق وقدم . فكان إن ضاقت على شاعر سبله يمم الكوفة فرأى متسعاً في التفكير وهوادة في الحياة .

كوفة الجند ، أصبحت قبلة أهل التفكير زمن بني امية ، ومرجع كل ما يمض مضاجع الخلافة في الشام ، ومهوى افئدة اصحاب النزعات التحريرية من العرب والعجم .

لا يخفى ان مكان الكوفة قد اختير قبل الاسلام لموقعه الجميل فكان مقر المناذرة ومنازههم . وكان في الجاهلية مرجع الشعراء وفي الحيرة كان عصر النعمان الذهبي ، وما الحيرة الا الكوفة .

بين هذه المناحي المتعددة، ظهرت الدعوة لآل البيت ثم ما ابثت بعد نجاح الثورة ان تغيرت كلمة آل البيت او توسع في فهمها فاذا البيت المالك ، البيت العباسي . واذا هؤلاء الذين كانت تهفو افئدتهم حباً لآل البيت، من ابناء الامام علي ، لم يزالوا كما كانوا زمن بني امية ، موضع حرمان ، وموضع اضطهاد وقتل وتشريد. لذلك رأيناهم ناقين حاضين على الخروج .

ورأى الخليفة العباسي الاول ان الكوفة ـ مقر الدعوة لآل البيت ـ لا تهيأ للاقتناع بهذا التحول المفاجيء ، فهرب الى المهدية كما هرب من قبله الحجاج الى واسط . ثم نرى بغداد وهي ابعد من المهدية عن الكوفة تمسى دار الخلافة .

ومع ذلك كانت بغداد ترى في الكوفة مرجعها الثقافي والخلقي والمذهبي فيرى الخليفة في علمائها مرجع الثقافة ، فيختارهم لتعليم اولياء العهود وتثقيفهم ، ونراه يقرب شعراءها ويسأل عنهم واحداً

واحداً . وكانت الكوفة باب بغداد فما رأينا شاعراً ترك البادية . دون ان يمر بالكوفة قبل ان يصل الى الخلفاء .

* * *

في زمن بني امية اشتد النزاع القبلي فكانت القحطانية ، وكانت النزارية وكانت دمشق الشام مربع الخلافة . ولم يكن فيها الشعر الا بمقدار . بل كان الشعراء يفدون عليها ، ثم يعودون الى البادية . وان استقروا ففي البصرة او الكوفة ملجأ البادية . ونرى بالتدقيق ان مقر النزارية كان البصرة بينما القحطانية تلجأ الى الكوفة ولهذا التفريق اصول واجتهاد ، فالنزارية اموية ، وهوى القحطانية منذ القديم مع آل البيت . وهذا قول مجازي فقد يكون قحطاني في البصرة او نزاري في الكوفة والناقد يرى ان ريح القحطانية في الكوفة ظاهرة . وان هؤلاء الضعفاء في عصبيتهم القحطانية كانوا من شعراء الكوفة . وكان رأسهم في عصرنا هذا خلف الاحمر . وهو يوجه هؤلاء الناشئين من الموالي ليختاروا موالاة القحطانية وبهذه الروح يجب ان ندرس هذه العاصفة في ظهور هذه القصائد الطوال في المفاخرة بين القحطانية والنزارية . وبهذه الروح يجب ان ندرس

المناقضات بين ابي نواس وأترابه وبين دعبل وابي سعد المخزومي ولداتهم.

وبهذه الروح يجب ان نفهم هذا الاضطهاد المنصب على شعراء القحطانية في بغداد وهذا التشريد والسجون.! فكم تأفف سار بين العصبية مما كان يقذفه ذلك الشواظ من الشعر ؟ وكم وضع من شعر وكم نحل ؟ ويكون ان العصبية الجنسية، قد وافقت العصبية المذهبية، ولا حد فاصل في الاسلام بين السياسة والمذهب.

* * *

في الكوفة، وعلى مياهها ومنازهها، كانت ظاهرة اخرى، هي هذا التساهل الحضري في مسالك الحياة فاذا كان في البصرة تزمت وجفاء في البدو تفرضه طبيعة البصرة الصحراوية، وما يبعث الى هذا الجفاف، من الخلق والتخلق، فقد كان في رياض الكوفة وارجائها، وقيام الاحزاب السياسية وتألفها، ومقر المجوسية الفارسية، وما تدعو اليه هذه الحضارة، وهذا الغنى وهذا الرقيق المذكر والمؤنث وهذا الاختلاط والامتزاج من الملازمات قد كان من كل ذلك، ان

رأينا الخمر والقصف واللهو حتى الزندقة تجاور هـذه الحياة الدينية الرضية ، وهذه المسالك التقوية المذهبية .

فمن اراد ان تخدمه الحياة ويخدمها فليترك البصرة الى الـكوفة .

ومن أحب التفكير الحر الجدي فليماشر هؤلاء المجازفين في الكوفة .

وليطلع على حياة الادب واللغة والفقه ثم المذاهب الاسلامية .

وبالاجمال فلتكن التنشئة في الـكوفة واظهار المعرفة في بغداد دار الخلافة. وفي هذه المائة سنة من الدور العباسي الاول كانت الكوفة كنز علومها ، وزهرة آدابها ، وروح ثقافتها ، ومهوى أفئدة أهل العلم فيها ، وينبوع حضارتها ، ومستمد وحيها .

دعبل بن علي

١٤٨ - ٢٤٦ هـ

في السنة التي توفي فيها الامام جعفر بن محمد الصادق وولد الامام علي بن موسى الرضى ولد في الكوفة على الاشهر لعلي بن رزين الخزاعي غلام ملأ قرنا كاملا بشعره واخباره عرف بدعبل . وسيان ألقباً كان دعبل ام اسماً انما عرف به .

كان ابوه علي شاعراً مقلا . ولم يكن من الاغنياء حتى ولا المكتفين . فرأينا الغلام دعبلا يترعرع بين احضان الفاقة ، كما يصرح من ترجم له . وكان يألف مجالس الكوفة بما فيها من علم ومن حزبية مذهبية ، وكان كبني خزاعة يرضع حب أهل البيت ، ويتشيع لهم بحماسة وشدة .

كان شاعراً ملء اهابه . ولم يكن يملك عواطفه . فكان يسير على هواه وقد يكون جموحاً . فكان يألف أهل الحاضرة وينغمس في تصرفاتهم ، ويختلف الى الشعر واهله حتى في البادية ينهل من ينابيعه ، وعصره هذا عصر الشعر والادب ، وعصر المذاهب المتباينة هذا

العصر هو عصر الجاحظ وابي نواس ، ومسلم وابي تمام والبحتري واضرابهم . انه لعصر حافل بالمآثر . هوعصر الحياة الرافهة والغنى ، والرقيق والغناء والشعر ، هو عصر يليق بشاعرنا وهواه الجامح وعقيدته الصلبة .

قد يكون ولد في غير الكوفة ولكنه الف الكوفة وهو صغير وترعرع فيها وربما لقي فيها مسلماً صريع الغواني - او كما في اكثر الروايات لقيه في بغداد - وبغداد هذه ترب دعبل . فقد تمت عمارتها عام ولد . وقد كانت دار اقامة له أودار ملجأ على الاقل ، أومناوبة كما يكون لهؤلاء الشعراء الذين يطمعون في دور الخلفاء .

اما هذا الفقر الذي يرويه عبدالله بن طاهر الخزاعي وانه كان وهو غلام يجتمع الى استاذه مسلم في ازار واحد فلم يكن يضير عبقريتنا فكم من العباقرة نشئوا هذه النشأة ، ولكن الشعر والفطنة والذكاء حقيق بتغيير كل حال .

واتصل خبر شعره غناء بالخليفة - وكان الرشيد - فقربه واجازه فأصبح الشاعر مترفاً ذا اموال ، واقتنى كما اقتنى غيره من طبقته - مسلم وابونواس - الغلمان المغنين واستهتر حيناً وجن احياناً ، ولكن

عقيدته لم تتزعزع يوماً ، وكان له من ذكاء مسامرة أهل العصر وفهمهم
ونقدهم ما يلزم كل ذي نباهة عبقرية ، فهذا الشاعر الذي يرفع كلمة الحق
وهذا الطموح الذي يهيب بكل نفس شريفة الى مجالي البطولة ، كالتهاب
نصيب علوي دعبل ، وكانت تواتيه احياناً فيقابل حقها باستصغار الخليفة
او الامير ، ثم لا يكترث له فلا يجبن ولا يصغر بل ينهال بالهجاء ينظمها الا لم
يبال بها ، وان ضاقت به بلدة ان يحل الى اخرى ، وارض الله واسعة الفضاء ما
لم تكن السكوفة مما يستطاب له . وان قيل في تحريكه اياها اتقوا المنام

وكان عهده فتن واضطرابات ودعوات ، وقيام ثم نهوض وسقوط ، حتى كان
هؤلاء النبهاء يتخذون من الحج الى بيت الله الحرام متنفساً ووسيلة لالتقاء
فكان دعبل منهم من حج في هذه الاضطرابات يوم كانت الحرب بين
الأمين والمأمون على ابواب بغداد ، ثم تحول الى مصر فقدم على نسيبه
المطلب الخزاعي فيها ، ثم تنكر له حتى تركه وعاد مهاجياً له ، ثم عاد الى
العراق ، ومنها الى خراسان ، حيث كان استاذه ... الفضل بن
سهل في خلافة المأمون قد اثرى واصبح والياً على جرجان فقصده ولم
تتحقق رغائبه ، وكيف يمكن لدعبل ان يرضى من دهره بغير ما يرضيه
مسلم على الاقل فكان الجفاء وكان التنكر . [illegible]

وفي هـذا الوقت لقي الامام علي الرضى في خراسـان فانشده ـ مدارس آيات ـ آية العصر واتصل برجال الخليفة ثم كر راجعاً الى العراق ، الى بغداد ، والى الكوفة ، والى البصرة ، والاهواز ، والى اصقاع بعيدة . يقول الشعر ويألف الحياة وقد طالت عليه . ولم تعظه بل كان شأن الشعراء الذين يسيرون في موكب الحياة الجامحة وينسى العمر وينسى متطلبات الحيـاة ويحسب ان زمن المأمون وحبه له ولمذهبه يخدمه حيث كان .

واتصلت به منذ صباه هذه المناقضات العصبية بين النزارية والقحطانية فكان يدفع عن مذهبه السياسي ـ الخلفاء والامراء ، يهجو من يهجو ، ويمدح من يمدح ، ويقف من أعدائه في هذه المناقضات موقف الند المنيد .

وتمتـد ايامه ويزاد في شـعره ما يعرضـه للاهوال حتى كانت الواقعة فدخل وهو في الثامنة والتسعين ، البصرة وعليها احد الامراء العبـاسيين ، فالقى القبض عليه متعصبـاً للنزارية ولم يدفع انكار دعبل الشعر الجلد والمعـاملة الشاذة السيئـة ومع ذلك لم يمت تحت الضرب بل فر من الموت حيث لقيه احد الفتاك في احدى قرى السوس فضربه بعكاز مسموم . وهكذا انتهت هذه الحياة الضخمة الطويلة .

حداثته

ان كتب التاريخ والادب مع كثرتها في العربية ، لا تفي بالمرام ، فهي معادة مكرورة وكلها تستقي من مورد واحد او موارد قليلة . وتاريخ هـذا العصر الادبي يكاد ينحصر في اخبار الاغاني الـكبير للاصفهاني . وله وجهة خاصة ، مهما يحسن ظننا في تحقيقه ونزاهتـه لا يمكننا ان نركن اليها كل الركون . وخاصة في اخبار هؤلاء الذين يجنحون الى الشعر في مسالكهم ، فتراه يميل مع هواه ولا يحفظ الا هـذه الاخبار التي تهدف الى السلبية . فقد روى في كتابه أكثر مايعرف عن شاعرنا ولكنه خص القسم الاكبر منه في علاقته مع الخلفاء وهجائه لاترابه ومن يتصل بهم عصبية قبلية أو مذهبية . ولم يذكر عن هـذه الحداثة إلا ما جعله توطئة لغايته . وعن الاغاني اخذ من كتب بعـده ، وجئنا في هذا العصر نلقي انواراً على هـذه الظلمات ونرجع فيها الى مرآة العلم الصادقة والنقدالصحيح فنكاد نعثر بالقنوط من بلوغ الغـاية ، وما لم يدرك كله لا يترك جله ، فلنطمئن الى

ما وصلنا اليه من جلاء مبهمات شاعرنا.

فيما بين ايدينا من كتب الأدب انه ظهر وهو حدث في الكوفة، وانه كان يألف الشطار فيها ونرى هذه الصفة تذكر لكثير من النوابغ فقد ذكروها لحماد الراوية من المتقدمين وللمتنبي من المتأخرين. وقالوا عن دعبل انه كان في فاقة وان هذه الفاقة قد دفعته لسلوك هذه الطرق الوعرة ولركوب هذه المخاطر [illegible]

[illegible] صرح ابنه كان يتشطر، وانه قتل مع رفيق له رجلا من الصيارفة وانه فر من الكوفة على اثرها، ولم يرجع اليها الا بعد أن مات أهل القتيل، ولم يكن من يطلب بدمه [illegible]

وقالوا في رواية اخرى انه جنى جناية في الكوفة وهو غلام فأخذه رئيس الشرطة وحبسه، فجاءه عمه سليمان بن رزين فكلمه فيه وقال أضربه أنا خير من ان يأخذه غيره فيقطع يده فلما [illegible] بضربه في ايام ثم ضربه ثلاثمائة سوط فخرج من الكوفة فلم يدخلها الا بعد [illegible]

هذه الرواية عن الاغاني ومنها يعلم انه عندما جنى الجناية كان غلاماً والغلام ليس عليه حد، ثم يذكر ان الجناية توجب قطع اليد ولا.

يخفى ... وقد خرج

من الكوفة ولم يرجع إليها إلا ... لم يرجع إلا

بعد أن أصبح شاعراً ... [illegible]

... قد تكون هذه الرواية صحيحة ... وليس بين

أيدينا ما ينقضها ولقد ضاع أكثر شعره ... هذه الروايات

... على شعره الأول ولا على أحاديث

كثيرة ... يمكن أن يرجع إليها ... [illegible]

ولعل أهم خبر ... رواه الحسن بن عليل العنزي عن عمرو

بن شيبان عن أبي خالد الخزاعي ويقول العنزي "وقد كتبت عن أبي

خالد أشياء كثيرة ولم أكتب عنه هذا الخبر" فهو يشك فيه ضمناً،

وما دام أبو خالد الخزاعي يحيل الرواية لعمرو بن شيبان فهو لا يمتنع

على الحسن بن عليل العنزي ... لكن ... ذلك فإنما يستطاع

... التهمة ... [illegible]

... والقتل والتعريض

... ومع ذلك فلا يضير

الشاعر أن يكون قد فعل ذلك ... أن يتيم طريق الهدى

ولا سيما وهو في محيط كمحيط الكوفة فيه كثير من الموبقات .

بقي ملازمته وهو غلام لمسلم ، ومسلم من تعلم من الشعراء وليس من فرق كبير بين سنيهما فقد كان مسلم سنة ٢٠٢ هـ كهلا كما يدعوه الفضل بن سهل عندما انشده ، وعمر دعبل في ذلك العصر ٥٤ سنة وهو سن الكهولة او يزيد فقد يكونان لدتين . وكان مسلم من شكول دعبل فقد ذكر لنا انهما كانا في فاقة وهما في عنفوان العمر وقد احتاجا الى الانفـاق على مجلس طرب ولم يكن لدعبل بيت يأوي اليه فأم بيت مسلم ـ وهذا كان من الفاقة بحيث باع منديلا لينفق عن الطعام فقد اجتمعا على الشعر وعلى الفقر .

وبالاتفاق كان مسلم استاذاً لدعبل وعليه تخرج ولكنه سلك طرق الاعراب ولم يخرج خروج مسلم في مطاوي البديع وتكلفه .

فهذا الغلام ـ قليل الاخبار زمن صباه ـ كان يتحفز لاحتلال مكانه اللائق منذ صغره . وكان يروض نفسه على الصعاب . ويتفقه في الشعر ويعاشر الاعراب ويأخذ عنهم ـ ويروى اخبـار الفحول من القدماء . ويتمرس بلامات ويرمي بنفسه كل مرمى . حتى ظهر ففاق استاذه مسلماً بشهادة شاعر العصر البحتري .

اتصاله بالرشيد

هذا العصر عصر العلم والشعر يتشابه فيه منشأ شعرائه الفحول فقد رأينا ابا نواس وابا العتاهية وغيرهما يبدءون حياتهم علماء ثم ينتهون الى الشعر وهكذا بدأ دعبل. فقد أراد ان يكون عالماً وحضر مجالس العلم والحديث واراد ابن أخيه ان ينسب اليه رواية الحديث فلم يثبت التحقيق صحـة ذلك . وبقيت لنا هـذه المحاولة التي تمر في تاريخ كل نابغة .

ثم ظهرت ناحية تفكيره فكان شاعراً وهل يستطيع الشاعر ان يخفي فنه ؟ فقال الشعر ونشره ، وكان من هذا الشعر الكوفي المحبب الى النفوس الذي يستسيغه الغنـاء حتى كبار المغنين كابن جامع وابن المكي وكان يصلح ليغنى به الخليفة وهذا هو كما اتصل بنا .

أين الشباب وأية سلكا ؟ لا ، أين يطلب ؟ ضل بل هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى
يا سـلم ما بالشيب منقصـة لا سوقـة يبقي ولا ملكا

قصر الغواية عن هوى قرح · · · اجد السبيل اليه مشتركا
وعدا باخرى عشق طالبها · · · ضبا يطا من دونها الحسكا
ياليت شعري كيف نومكما · · · يا صاحبي اذا دمي سفكا
لا تأخذا بظلامتي احدا · · · قلبي وطرفي في دمي اشتركا

« فلما سمعه الرشيد قال : لمن هذا الشعر ؟ فقيل لدعبل بن علي ، وهو غلام نشأ في خزاعة . فأمر باحضار عشرة آلاف درهم وخلعة من ثيابه فاحضر ذلك فدفعه مع مركب من مراكبه الى خادم من خاصته وقال له اذهب بهذا الى خزاعة فاسأل عن دعبل بن علي فاذا دللت عليه فأعطه هذا وقل له ليحضر ان شاء وان لم يحب ذلك فدعه . فسار الغلام الى دعبل واعطاه الجائزة واشار عليه بالمسير اليه ، فلما دخل عليه وسلم امره بالجلوس فجلس واستنشده الشعر فانشده اياه فاستحسنه وامر بملازمته واجرى عليه رزقا سنيا » (١)

فيظهر من هذا ان دعبلا قال الشعر وهو غلام ، والرشيد بويع سنة ١٧٠ هـ ، فيكون عمر دعبل يوم مبايعة الرشيد ٢٢ سنة وبالطبع

(١) عن الاغاني بتصرف

٢٦

لم يتصل بالرشيد هذه الصلة فكيف يكون [illegible]

٣٩ — والملاحظة الثانية انه عندما [illegible] به وانه من خزانته — ارسل اليه الجائزة : واركب غلامه في مركب من مراكبه والمراكب للتعظيم . والملاحظة هل هذا التعظيم [illegible] لم يكن قد سمع به ؟ [illegible] العصر في عصر فيه ابو نواس ومسلم وطبقتهما ؟ [illegible]

[illegible]

ولم يثبت ان الرشيد كان يسمح لهذه الطبقة من الدنو منه فيجب ان يكون ذكر الخزاعيين هو الذي اوقفه هذا الموقف [illegible]

[illegible] هذه الابيات هي غزل قصيدة في المديح على الطريقة المعهودة فما هي البقية ؟ وهل يعقل ان [illegible] يكون مثل دعبل وهو في [illegible] ويقول مثل هذا الشعر ويأتي الرشيد ولا يمدحه ؟ واذا كان قد مدحه فأين قصائد المديح ؟ ضاعت بضياع شعر دعبل .

اما انه انشد الابيات فلا خلاف فيه . واما ان الرشيد قد سمعها واحضر دعبلاً ليتعرف اليه فهذا لا شك فيه . وكان ذلك في زمن البرامكة على الاقل لاننا رأينا دعبلا يرثي البرامكة مع شدة الرشيد

وتحريم ذلك على الشعراء . وكم نتوق لأن نعرف رأي دعبل في فعل الرشيد ومعاملة البرامكة . ولكن الجرأة على رثائهم لا تخفي رأيه فيهم . اما هذا الذي سماه المسعودي رثاء فلم يذكر منه إلا قوله .

الم تر صرف الدهر في آل برمك   وفي ابن نهيك والقرون التي تخلو

والمسعودي يتذوق الشعر على اصوله والا كنت اشك كثيراً في نسبة هذا البيت الى الرثاء فهو في موقف عبرة ويمكن ان يكون بعد البرامكة وبعد الرشيد والأمين .

وعلى كل حال اصبح دعبل شاعراً زمن الرشيد ينظر اليه ويحترم وقد اصبح غنياً ذا أموال يألف بغداد ويتردد الى الكوفة ويقتني الغلمان المغنين وما يلزم ذلك من رفاه الحياة وميسورها .

المطلب الخزاعي

هو المطلب بن عبدالله بن مالك الخزاعي - امير من امراء خلافة العباسيين تولى للامين مصر سنة ١٩٨ - ٢٠٠ هـ ثم انتقل منها الى بغداد فكان يوم عمت بيعة المأمون في بغداد . وهو شيعي على مذهب الخليفة . ثم لما حدثت فتنة ابراهيم بن المهدي ، رأيناه على رأس الحزب ، يأخذ البيعة لابراهيم .

ثم لما تقدمت جيوش المأمون الخليفة نحو بغداد خان ابراهيم وجعل يعمل للمأمون ويتعقب ابراهيم ليقبض عليه .

لم يكن المطلب وحيداً في هذا العصر فقد كانت حياة السياسة مضطربة . وامسى الخداع والتلون الحرباوي من سمات هؤلاء القادة .

كان هؤلاء المتحرجون ، أصحاب العقيدة الصلبة ، حيارى لايدرون ما يفعلون وتكون سنة ١٩٩ هـ والحالة في بغداد على اشدها من الفوضى والهلع ، وجيوش طاهر بن الحسين ، وهرثمة بن أعين تضيق الخناق على الامين واجناده ، وهذه الشدة على البلد وهذا الغلاء الشديد وتحكم الشطار والعيارين . وفي الكوفة دعوة لابن طباطبا

العلوي وفي مكة دعوة لابراهيم بن ... وتولى ابن جعفر اخي الامام علي الرضا (٢٠٠ هـ) .

ثم لو كان الناس يتخذون من الخلع والتسلية للهرب من هذه القلة والاخذ بالثأر من ... والانفلات من هذا الضغط السياسي الخانق ففي هذه السنة خرج دعبل الخزاعي رزين بن علي ومنها قصيدته المصورة للمطلب الخزاعي والي الامين [illegible] لم يكن مع الامين ولا مع عماله وانه مع كل لما يحفظ لخزاعة ... [illegible] هذا الامير الذي ... الذي يحفظ ولاء الامين مع كل ما ظهر منه من الحنث بالعهود وقال ... قصيدة .

أضرب ندى طلحة الطلحات متئداً بلؤم مطلب فينا وكن حكما

تخرج خزاعة من لؤم ومن كرم فلا تعد لها لؤماً ولا كرما

نجد أن طلحة الطلحات كما هو ... لؤم امير خزاعي يضرب به المثل في الكرم وحسن الخلق . فيقول بدون تبسط ان شهرة خزاعة وفخرها لطلحة الطلحات قد يقابله لؤم المطلب الخزاعي فتمسي خزاعة بلا كرم

ولا لؤم . وهذا هو الاقذاع في الهجاء، وهو أمر الهجاء .

لما دخل مصر لم يكن المطلب سمع بهذا الهجاء، وكان دعبل واخوه قد اخذا كتب وصاة الى المطلب ممن لهم عليه يد، على ان معرفة دعبل به قديمة وانه اي المطلب يعمل بوحي السياسة الحزبية، فاستقبلهما بكل ترحاب ووقف دعبل يمدحه من قصيدة

ابعد مصر وبعد مطلب ترجو الغنى إن ذا من العجب
إن كاثرونا جئنا بأسرته او واحدونا جئنا بمطلب

ورأيت له من قصيدة

يا مطلب سقيت زمانا لم اكن منه الا روضة وجنانا
كل الندى الا نداك تكلف لم أرض بعدك كائنا من كانا
أصلحتني بالبر بل أفسدتني فتركتني أتسخط الإحسانا

امل المطلب فأكرمهما معا، واخاه ولزماه ونالا جوائزه وأخيراً بلغ دعبل مناه فقد ولاه المطلب على أسوان. ولا أدري ما الذي كان يحبب الولاية الى هؤلاء الشعراء في هذا العصر؟ فهذا مسلم قد رضي بولاية جرجان وهذا ابو تمام قد رضي ببريد الموصل وهذا دعبل في اقصى الارض يتولى اسوان.

ثم علم المطلب ان دعبلا قد هجاه وقيل غير ذلك . وهو لم يثبت عندي . فغضب كل الغضب وهو يحسب ان هذا الهجاء كان بعد الولاية ، وانه جازاه جزاء سنهار . فانفذ اليه - كتاب العزل - مع مولى له وقال « انتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة فأذا علاه فأوصل الكتاب اليه وامنعه من الخطبة وانزله عن المنبر واصعد مكانه » .

فلما ان علا المنبر وتنحنح ليخطب ناوله الكتاب، فقال له دعبل « دعني اخطب فاذا نزلت قرأته » فقال « لا قد امرني ان امنعك الخطبة حتى تقرأه » فقرأه وانزله عن المنبر معزولا .

هذا عصر عنف ولؤم ، فكان يمكنه ان يعزله بغير هذه الطريقة الجافة وماذا ننتظر من دعبل بعد هذه المعاملة ؟ إلا ان يدميه بنباله الحادة ؟ فما لبث ان ترك مصر ورجع الى العراق وهو يقول :

أمطلب أنت مستعذب حميا الافاعي ومستقبل
فان اشف منك تكن سبة وان أعف عنك فما تعقل
ستأتيك - إما وردت العرا ق - صحائف يؤثرها دعبل
منمقة بين أثنائها مخاز تحط فلا ترحل
وضعت رجالاً فما ضرهم وشرفت قوماً فلم ينبلوا

فأيهم الزين بين الملا عطية ام صالح الاحوال
أم الباذجاني أم عامر أمين الحمام التي تزجل[1]
تعلق مصر بك المخزيات وتبصق في وجهك الموصل
ويوم الصراة تحسيتها يطيب لدى مثلها الحنظل
توليت ركضاً وفتياننا صدور القنا فيهم تعسل

فقوله فتياننا مؤلم اي يجب أن تشرف خزاعة لا أن توردهم موارد الهلاك .

إذا الحرب كنت أميراً لها فحظهم منك أن يقتلوا
فمنك الرءوس غداة اللقا وممن يحاربك المنصل
شعارك في الحرب يوم الوغى إذا انهزموا عجلوا عجلوا
هزائمك الغر مشهورة يقرطس فيهن من ينضل
فأنت لأولهم آخر وأنت لآخرهم أول

والمطلع يرى أن هذه القصيدة قيلت فى العراق بعد أن أصبح المطلب معادياً للمأمون تحارب جيوشه لأبراهيم بن المهدي .

ثم رأينا المطلب يغير رأيه وينضم الى المأمون والى الشيعة فنرى

---

(١) هؤلاء م موالي المطلب وعماله .

دعبلاً قد رضي عنه ووافقه المطلب فدعاه اليه فلما دخل عليه قال «والله لاقتلنك لهجوك الملك لي» قال دعبل «اشبهني إذاً ولا تقتلني جائراً» قال «قبحك الله هذا اخزى من الاول» ثم وصله فحلف ان يمدحه ما عاش وبعدها هذا رأينا من مديحه

سألت الندى لا عدمت الندى   وقد كان متباعدا زماناً غريبا

فقلت إلى مطال دعبل الملقان   فقد غبت بالله أم لم تغب

فقال بلى لم ازل غائباً   ولكن قدمت على المطلب

ولم يطل هذا الملقى قدم منذ الاعلى فقد اجاد دعبل في اعراضه كل الاجادة ولما مات المطلب وهو على منصبه رثاه دعبل هو بحالمة

مات الثلاثة بعدنا امات مطالبه   مات الحياء ومات الرعب والرهب

لله اهل بيته قد ضمها كفن   اضحت يهوى بها الاسلام والعرب

يا يوم مطلب اضحكت أعيننا   دمعاً يدوم لها ما دامت الحقب

تبكي خدود بني قحطان قد لصقت   ...

... بالتراب بما استوى من فوقك الترب ...

ونلاحظ في الرثاء الشهير في أحد امراء خزاعة هو المطلب وهذا هو .

( ) ...

كانت خزاعة ملء الارض ما اتسعت

فقص مر الليالي من حواشيها

هـذا أبو القاسم الثاوي ببلقعة

تسفي الرياح عليه من سوافيها

هبت وقد علمت ان لا هبوب له

وقد تكون حسيراً إذ يباريهـا

اضحى قرى للمنايا اذ نزلن به

وكان في سالف الايام يقريها

فمن هـذه الاقوال يتضح لنا موقف الشاعر من هذا الأمير الخزاعي وانـه كان يقول بقول الفرزدق « نكون معهم ما كان الله معهم فاذا تخلى عنهم تركناهم » .

خلافة المأمون

١٩٧ ـ ٢١٨ هـ

هذه عشرون سنة تركت ابعد اثر في التاريخ ، فيها ما يؤثر من العلم والفضل ، وفيها ما يعم من الاضطراب والفوضى وتعدد المذاهب وكثرة الخارجين حتى عددت سبعة من اولاد الامام علي بن أبي طالب في انحاء العراق والجزيرة (١) فقط غير من خرج من الفرس وسواهم .

---

(١) في سنة ١٩٩ هـ خرج ابو السرايا السري بن منصور الشيباني بالعراق ومعه محمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهو ابن طباطبا .

٢ ـ وثب بالمدينة محمد بن سليمان بن دواد بن الحسن بن الحسن .

٣ ـ وثب بالبصرة علي بن محمد بن جعفر بن علي بن الحسين .

٤ ـ وثب زيد بن موسى بن جعفر .

٥ ـ ابراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد باليمن .

٦ ـ محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بمكة ونواحي الحجاز .

٧ ـ الحسن بن حسين بن علي بن علي بن الحسين بن علي بالمدينة .

(عن ابن الاثير في كامله)

ان عصراً تكثر فيه مثل هذه الاعاصير في الداخل والخارج يكون مرتعاً خصيباً للشعر وموضوعاً شيقاً لمختلقي الاحاديث وتوجيهها حسب الرغبات .

ما توفي الرشيد في طوس حتى كان قد اشبع الاخوين بغض احدهما الآخر وجعلهما على مثل قرن . فقد نشأ المأمون تنشئة شيعية ولا اقول فارسية ، ثم لم يتورع فأمره على خراسان والقسم الشرقي من المملكة .

وجعله ولي عهد الامين ولم يكن للخليفة سلطة على تغييره . ثم توفي وهو في جيشه ، فأمر ان يكون هذا الجيش وما فيه ـ من عتاد واموال ـ الى المأمون وهنا الموقف الصعب ، أي قائد تطمئن نفسه اذا انضم الى المأمون بوصية الخليفة الرشيد وقد اكتسب غضب الخليفة القائم ؟

واخذ وزراء الخليفة الامين ووزراء المأمون يبعدون شقة الخلاف بين الخليفة وولي عهده والايام تباعد بينهما . وكان ما كان حتى هبت الثورة تأكل الاخضر واليابس ، وتقضي على ما عمر المنصور وخلفاؤه في بغداد من المعالم .

لم تقتصر تلك الثورة على بغداد دار الخلافة . بل رأينا الناس حيارى في كل صقع ، والمناداة بالامام وبالخلافة في كل مظهر . حتى هؤلاء الذين ينشدون السلامة نراهم مترددين، أو وادعين، أو يتلقون المصيبة عن بد . وكثر الرعاع وتحكموا بالعقلاء . ويعجب العاقل من حالة بغداد مدة ثلاث سنوات ، والجيش يضيق عليها الخناق والذين يدافعون عنها هم الشطار والعيارون وكفى بهم من متحكمين باموال الناس وحرماتهم .

وما أمن المسلمون نكبة النزاع على الخلافة ـ وقد استقرت الامور للمأمون ـ حتى أحدث خرقاً فجعل دار الخلافة مرو في خراسان . واي عربي يرضي عن ذلك ؟

ثم غير السواد بالخضرة ، وخلع ولي العهد العباسي وعهد الى الامام علي بن موسى الرضى بولاية العهد. وتحكم الفضل بن سهل باعمال الخلافة وفوض اليه شرق البلاد حتى حدودها وحكم اخاه الحسن بن سهل في غربي البلاد وكان من نصيب طاهر بن الحسين الخزاعي، فاتح بغداد ، وقاتل الامين . ان ابعد الى الرقة كالمنفي ومن حظ هرثمة بن اعين القائد الكبير الغيور ، ان قتل شر قتلة عندما نصح للمأمون ان ينظر

بعين الحقيقة الى ما يجري في البلاد ،

وأخيراً طفح الكيل - وكان لهذا الليل من آخر - ورأى المأمون بعين بصيرته بعد أن هداه ولي العهد - الامام العلوي - ان اهل بغداد والمغرب قد خلعوا المأمون وبايعوا ابراهيم بن المهدي وكانت الواقعة.

فتحرك المأمون راجعاً الى بغداد فلما بلغ سرخس قتل الفضل بن سهل وفي الطريق في طوس مات ولي العهد الامام الرضا بعد ان اكل عنباً مسموماً فسهلت الامور على سياسة المأمون ، ودخل بغداد بعد ان فرمنها ابراهيم بن المهدي ، ولكن المأمون ظل لابساً الخضرة شعار آل البيت العلوي ثم رأيناه بعد ذلك سنة ٢٠٤ هـ بغير لباس الخضرة، ويعود الى السواد العباسي وبعد ذلك ببضع سنوات ٢١٢هـ يعود الى الشيعة وينادي بتفضيل الامام علي بن ابي طالب على جميع الخلفاء وبين هذا وذاك من الآراء نرى القواد والعظماء يسيرون بهذه التيارات فحينا يخضعون وحينا يشذون - حتى القائد العظيم طاهر بن الحسين قد شق عصا الطاعة ولم يخطب باسم الخليفة في خراسان . وحتى أهل قم الشيعيين الاشداء خلعوا المأمون مرة - بالطبع عندما سود (١) - وان كان ابن الاثير يعزو ذلك الى عدم الحط من خراجهم .

---

(١) اي لبس السواد العباسي

ولم يقتصر على هذه المحن ، بل امتحنهم المأمون بالمحنة العظمى - القول بخلق القرآن - والانصراف الى هذا الجدل البزنطي غير المثمر إلا الاحن والبلايا والشدائد .

والهول يدعو الى الهول ، فقد كان هذا التراخي عن نتيجة الجدل والمأمون يحسب ذلك سمة للعلم . فكثرت المذاهب من سنة وشيعة ، وتنوعت الفرق من معتزلة وقدرية وجبرية ، وفعل طباع ، وما ينطوي تحت هذه من نزعات .

ثم رأينا العصبية بين النزارية والقحطانية قد عادت الى عنفها فضلا عن الشعوبية والعربية .

والمأمون يشتد احياناً حتى ينزع لسان علي بن جبلة العكوك من قفاه ويتساهل احياناً حتى يسمع هجاءه باذنه .

هذه ثمرة كان شاعرنا دعبل ينظر اليها بجد وحيرة وهو لا يعدم وسيلة يظهر فيها كل الظهور ان في مذهبه الشيعي الذي لا يحول عنه ويدافع ما استطاع حتى كان يقول « احمل خشبتي ستين سنة ولا اجد من يصلبني عليها » او في النزاع بين الاهواء والعصبيات كالدفاع عن القحطانية والرد على السابقين والمعاصرين ، وما كان يترتب على ذلك من هذه المشادات .

آية العصر

ما عاد دعبل من مصر غاضباً على المطلب مطروداً من اميره الخزاعي الذي حسب انه سيلقى في كنفه الملجأ الامين ـ حتى علم ان المأمون اصبح خليفة ، وانه نزل على هوى الشيعة ، فكفر بالسواد والعباسيين ولبس الخضرة ونادى بولاية العهد الى الامام علي بن موسى الرضا ، وأصهر اليه والى ابنه وقرب الشيعة وحقق الآمال فليشد اليه الرحال وليلق عنده الامن ، وفي خراسان بلوغ الاماني وهناك استاذه ورفيقه مسلم في امن ودعة ورفاه وقد اصبح والياً على جرجان . وبسمت له الدنيا فالى خراسان الى خراسان .

كان عليه فور وصوله الى مرو ان يتبرك بطلعة الامام الرضا وان ينشده قصيدته التي اعدها لمثل هذا الموقف السعيد والتي منّ مؤرخو الآداب فابقوها لنا تامة وهي آية الشعر الدعبلي أو بحق هي ـ آية العصر ـ وهذه هي كما حققها ياقوت في معجم الادباء (١)

(١) شهرة القصيدة أغنتنا عن نقلها كاملة كما نقلتها كتب الأدب وموسوعات التاريخ المختلفة .

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى وبالركن والتعريف والجمرات
ديار علي والحسين وجعفر وحمزة والسجـاد ذي الثفنات
ديار عفاها كل جون مباكر ولم تعف للآيات والسنوات
قفا نسأل الدار التي خف اهلها متى عهدها بالصوم والصلوات
واين الاولى شطت بهم غربة النوى افانين في الافاق مفترقات
هم أهل ميراث النبي اذا اعتزوا وهم خير قادات وخير حماة
وما الناس إلا حاسد ومكذب ومضطغن ذو احنة وترات
اذا ذكروا قتلى ببدر وخيبر ويـوم حنين اسبلوا العبرات
قبور بكوفان (١) واخرى بطيبة واخرى بفخ نالهـا صلواتي
وقبر ببغداد لنفس زكية تضمنها الرحمان في الغرفات
فاما الممضات التي لست بالغاً مبالغهـا مني بكنه صفات
الى الحشر حتى يبعث الله قائماً يفرج منها الهم والكربات
نفوس لدى النهرين من ارض كربلا معرسهم فيهـا بشط فرات

(١) في ياقوت كوفات بالتاء وتصحيحها بالنون وهي من أسماء الكوفة كما في المعاجم .

تقسمهم ريب الزمان كما ترى ... لهم حفرة مغشية الحجرات
سوى ان منهم بالمدينة عصبة ... مدى الدهر انضاء من الازمات
قليلة زوار سوى بعض زور ... من الضبع والعقبان والرخمات
لهم كل حين نومة بمضاجع ... لهم في نواحي الارض مختلفات
وقد كان منهم بالحجاز وأهلها ... مغاوير يختارون في السروات
تنكب لأواء السنين جوارهم ... فلا تصطليهم جمرة الجمرات
إذا وردوا خيلاً تشمس بالقنا ... مساعر جمر الموت والغمرات
وإن فخروا يوماً اتوا بمحمد ... وجبريل والفرقان ذي السورات
ملامك في اهل النبي فانهم ... أحباي ما عاشوا واهل ثقاتي
تخيرتهم رشداً لأمري فانهم ... على كل حال خيرة الخيرات
فيارب زدني من يقيني بصيرة ... وزد حبهم يارب في حسناتي
بنفسي انتم من كهول وفتية ... افك عناة او لحمل ديات
احب قصي الرحم من أجل حبكم ... واهجر فيكم اسرتي وبناتي
واكتم حبيكم مخافة كاشح ... عنيد لاهل الحق غير مؤات
لقد حفت الأيام حولي بشرها ... واني لأرجو الأمن بعد وفاتي
ألم تراني من ثلاثين حجة ... اروح واغدو دائم الحسرات

أرى فيأهم في غيرهم متقسما وأيديهم من فيئهم صفرات
فآل رسول الله نحف جسومهم وآل زياد حفل القصرات
بنات زياد في القصور مصونة وآل رسول الله في الفلوات
اذا وتروا مدوا الى اهل وترهم(١) اكفاً عن الاوتار منقبضات
فلولا الذي ارجوه في اليوم او غد لقطع قلبي اثرهم حسراتي
خروج امام لا محالة خارج يقوم على اسم الله والبركات
يميز فينا كل حق وباطل ويجزي على النعماء والنقمات
ساقصر نفسي جاهداً عن جدالهم كفاني ما القى من العبرات
فيا نفس طيبي ثم يا نفس ابشري فغير بعيد كل ما هو آت
فان قرب الرحمن من تلك مدتي وأخر من عمري لطول حياتي
شفيت ولم اترك لنفسي رزية ورويت منهم منصلي وقناتي
احاول نقل الشمس من مستقرها واسمع احجاراً من الصلوات
فمن عارف لم ينتفع ومعاند يميل مع الاهواء والشبهات
قصاراي منهم ان أموت بغصة تردد بين الصدر واللهوات
كأنك بالاضلاع قد ضاق رحبها لما ضمنت من شدة الزفرات

(١) في الروايات « الى واتريهم » .

ولنترك التعليق على هـذه القصيدة العصماء لدعبل باجماع الرواة واختلاف بسيط لايغير القصد قال :

دخلت على علي بن موسى الرضى عليهما السلام فقال لي انشدني شيئاً مما احدثت فأنشدته :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصـات

حتى انتهيت الى قولي :

اذا وتروا مدوا الى واتريهم اكفاً عن الاوتار منقبضات

فبكي حتى اغمي عليه واومأ الي خادم كان على رأسه أن اسكت فسكت ساعة ثم قال لي اعد فاعدت حتى انتهيت الى هذا البيت فاصابه مثل الذي اصابه في المرة الاولى، فأومأ الخادم الي ان اسكت فسكت فمكث ساعـة اخرى ثم قال لي اعد فاعدت حتى انتهيت الى آخرها فقـال لي احسنت ثلاث مرات ، ثم امر لي بعشرة آلاف درهم مما ضرب باسمه ولم تكن وقعت الى احد بعد وامر لي من في منزله بحلى كثير اخرجه الى الخادم فقدمت العراق فبعت كل درهم منها بعشرة دراهم اشتراها مني الشيعـة فحصل لي مائة الف درهم فـكان اول مال اعتقدته .

ثم يزيد الأصفهاني في الاغاني على هذا الحديث باسناد حذيفة بن محمد ان دعبلا قال له انه استوهب من الرضى عليه السلام ثوباً قد لبسه ليجعله في اكفانه فخلع جبة كانت عليه فأعطاه اياها وبلغ اهل قم خبرها فسألوه ان يبيعهم اياها بثلاثين الف درهم فأبى عليهم بيعها فخرجوا عليه في طريقه فاخذوها منه غصباً وقالوا له ان شئت ان تأخذ المال فافعل وإلا فانت اعلم فقال لهم اني والله لا اعطيكم اياها طوعاً ولا تنفعكم غصباً واشكوكم الى الرضى عليه السلام فصالحوه على ان اعطوه الثلاثين الف درهم وفرد كم من بطانتها فرضي بذلك فكان في اكفانه ، وكتب هذه القصيدة ـ مدارس آيات ـ على ثوب واحرم فيه وأمر بأن يكون في اكفانه .

يلاحظ من هذا التعليق على قوله « فكان اول مال اعتقدته » وفي كتب اللغة اعتقد المال امتلكه وكيف يكون اول مال ؟ وكيف توفق بين هذا القول وعطية الرشيد من قبل !

ابراهيم بن المهدي

لم تطل اقامة دعبل في خراسان فقد عاد الى بغداد كما قال عن نفسه وباع الدراهم من الشيعة. ورأيناه يهاجم المطلب يوم اخذ البيعة لابراهيم بن المهدي كما ينتظر منه ولم يكن هـذا الهجاء من روائع دعبل ، كانه لم يكن يعتقد ان الامر سيثبت له .

وابراهيم هذا اديب موسيقار كبير ، وشاعر مقبول ، ولكن الخلافة تحتاج الى غير هـذا . تحتاج الى ثقة ومعرفة باسرار الدولة ، والى المال في المرتبة الاولى وخاصة اذا كانت نتيجة خصام وحرب . فلما بويع ابراهيم هاجـه جند المأمون ، وهو الظافر الفائز على أهل بغداد وعلى الامين .

من اين المال لابراهيم ؟ ولا يحارب الجند بدونه . وكان قد احتاج الى الاعراب واوغاد الناس وهـذا لا يحتاج الى تدليل فانهم لم يدفعوا عن خليفتهم الحقيقي ابن هرون الرشيد . فكيف بهذا الدعي ؟

ولما لم يكن عنده مال « جعل يسوفهم ولا يرون له حقيقة الى ان خرج اليهم رسوله يوماً وقد اجتمعوا وضجوا فصرح لهم بان لا مال عنده فقال قوم من غوغاء بغداد اخرجوا الينا خليفتنا ليغني لاهل هذا الجانب ثلاثة اصوات ، ولاهل هذا الجانب ثلاثة اصوات فتكون عطاء لهم » (١) .

وسمع دعبل هذا الحديث فاتخذ منه ما يوافق هواه ثم لبث ان أنشد .

يا معشر الاجناد لا تقنطوا　　وارضوا بما كان ولا تسخطوا
فسوف تعطون حنينية　　يلتذها الامرد والاشمط
والمعبديات لقوادكم　　لا تدخل الكيس ولا تربط
وهكذا يرزق قواده　　خليفة مصحفه البربط
قد ختم الصك بارزاقكم　　وصحح العزم فلا تقنطوا
بيعة ابراهيم مشئومة　　يقتل فيها الخلق أو يقحطوا

هذا شعر مؤلم جداً . خليفة مصحفه البربط !

ولم تطل أيام ابراهيم ليعاقب دعبلاً على قوله ، ولو كان يعاقب

(١) عن الاغاني .

كل من يردد مثل هـذه الابيات او يقول معناها لوجب ان يعاقب كل اهل بغداد .

دخل المأمون بغـداد وفر ابراهيم ووقف دعبل ينظر ما يعمل المأمون ، والمأمون يراوح الناس ويناديهم بالخضرة احيانا والسواد حينا ، ويميل بطبعه الى الشيعة ، وحزبهم في ازدياد وقوة ، ودعبل يدل عليه بهـذا الميل وما عرف به وقد سمع هجاءه فى ابراهيم وعمره وخاصة قوله الاخير .

علم وتحكيم وشيب مفارق　　تطميس ريعان الشباب الرائق
وامارة فى دولة ميمونة　　كانت على اللذات اشغب عائق
فالآن لا اغدوا ولست برائح　　فى كبر معشوق وذلة عاشق
انى يكون وليس ذاك بكائن　　يرث الخلافة فاسق عن فاسق
نعر ابن شكلة بالعراق وأهله　　فهفا اليـه كل اطلس مائق
إن كان ابراهيم مطلقاً بها　　فلتصلحن من بعده لمخارق
ولتصلحن من بعد ذاك لزلزل　　ولتصلحن من بعده للمارق

قيل لما سمعها المأمون ضحك وعفا عن دعبل وجعل يترقب لقاءه وفى المراجع ان المأمون سمع بالتائية الكبرى واعجب بها كل الاعجاب

وكتب الى دعبل امانا فلما دخل عليه تبسم فى وجهه وقال . « ايه دعبل ، انشدني ـ مدارس آيات ـ فأنها قد وصلتني ولكني اريد ان اسمعها منك» فانشده اياها فبكى المأمون . وتلك الدمعة كان لها اكبر الاثر في ادلال دعبل على هؤلاء العمال المراوغين في دولة المأمون . وكم جرب ابراهيم هذا ان ينال من دعبل في زمن المأمون فلم يستطع ولكنه اغرى به المعتصم كما سنذكر في فصل آت . وقد نجا دعبل من هذا الشر وعمر كما هو معروف الى آخر خلافة المتوكل .

مسلم بن الوليد

يقرن اسم دعبل باسم مسلم بن الوليد (صريع الغواني) فقد كان مسلم استاذ دعبل ولكنهما كانا متقاربين في السن ومتشابهي الفقر كما مر معنا .

اما انهما كان يجمعهما ازار واحد كما يقول عبدالله بن طاهر ففيه نظر . واما المقارنة بين الشاعرين فلها غير هذا الفصل . ونعلن الآن أن مسلم بن الوليد قصد الى خراسان زمن المأمون ووزارة ذي الرئاستين ومدحه وعرف له الفضل مقامه فقال « اعيذك ايها الكهل من هذا الموقف . فسل حاجتك » فقال لابد من الانشاد فلما انشده قال « اريد ولاية جرجان » فاجازه واغناه وولاه جرجان . فلما سمع دعبل بذلك قصد الى خراسان يوم زار الامام علي الرضا وقصد مسلماً . ومسلم هذا كان فيه بخل كما قيل عنه . وقد يكون ذلك صحيحاً ، أو انه لم يعتد ان يهب الأموال ، لمثل دعبل وهو ما هو منه . فلم يعامله بما كان يأمل .

فلم يحتمل دعبل هذا الجفاء ولم يصبر عليه فقال فيه ابياته الخالدة .

ابا مخلد كنا عقيدي مودة   هوانا وقلبانا جميعاً معاً معاً

احوطك بالغيب الذي افت حائطي | وأنجع أشفاقا لأن تتوجعا
فصيرتني بعد انتحائك متهماً | لنفسي عليها ارهب الخلق اجمعا
غششت الهوى حتى تداعت اصوله | بنا وابتذلت الوصل حتى تقطعا
وانزلت من بين الجوانح والحشا | ذخيرة ودٍ طالما قد تمنعا
فلا تعذلني ليس لي فيك مطمع | تمزقت حتى لم اجد فيك مرقعا
فهبك يميني استأ كلت فقطعتها | وجشمت قلبي صبره فتشجعا

وهـذه الابيات هي عتاب موجع . ولـكن ليس فيها شيء من الهجاء ، هو يقول انه قد قطع وده ، وحرمه صداقته ، فان كانت تهم مسلماً فعلى مسلم ان يعمل على وصل ما انقطع وهو اقدر من دعبل المحروم ولـكن مسلماً اختار القطيعة فتهاجرا وما التقيا بعدها .

وقيل إن دعبلاً قال للفضل بن سهل .

لا تعبأن بابن الوليد فانه | يرميك بعـد ثلاثة بملال
ان الملول وان تقادم عهده | كانت مودته كفيء ظلال

ودفع الفضل الرقعـة الى مسلم فلما قرأها رمي دعبلاً بكل فرية واعلن انه كان يلقب وهو غلام بمياس .

والمنصف يرى ان دعبلاً ومسلماً في مستوى واحـد من حفظ الوداد ولم يكن ذلك ببعيد في هذا العصر الملول .

قبران في طوس

ما علمت احداً يذكر دعبلاً إلا ويروي فيه انه قليل الوفاء وانه لم يحفظ للرشيد عهداً ، فهو الذي اخرجه من ظلمات الاهمال ، وهو الذي عامله بما لم يعامل به اهل طبقته. وعند بعضهم انه الذي احضره الى دار الخلافة واجرى عليه الارزاق حتى نبه ذكره ، وحسنت حاله وهزأ بالزمان ونوبه .

ويروى ابن طاهر عبدالله انه لم يمت الرشيد حتى هجاه هجاء مراً موجعاً ويورد الابيات الرائية المشهورة ، والمحقق المنصف يعلم علم اليقين ان الرشيد اعجب بشعر دعبل . ولما علم انه من خزاعة ، تقرب اليهم به، وهم - كما يقول دعبل - ملء الارض في زمانهم، وكفى بمن هو مشهور منهم ، المطلب بن عبدالله ، وقد كان يعهد اليه في كل ملمة ، وطاهر بن الحسين وابناؤه وهم منهم، والرشيد يعرف الشعر ويقدره . ولدعبل رأي في الخلافة كما يعهد فهي خلافة مغتصبة على مذهبه . ومع كل ذلك حفظ لخليفته حقه ، ومدحه وان كان من انهب شعر دعبل لم يبق على هذا المديح .

كان دعبل غلاماً حين انشده ، وقد قررنا أن هذه الغلامية كانت قبل ان اتصل بالرشيد . وهذه الرائية قالها بعد مرور ستة عشر عاماً على وفاة الرشيد على الاقل .

وما اظلم عبدالله بن طاهر وهو الاديب العالم حين يقول « فما بلغه موت الرشيد حتى قال فيه » .

والحقيقة ان الرشيد كان في طريقه الى خراسان يوم مات في طوس فدفن فيها ، واتفق ان المأمون في رجوعه الى بغداد ومعه علي الرضى توفي في طوس ايضاً فدفن فيها قرب قبر الرشيد . ثم كان من امر المأمون ما كان ، وعودته الى السواد ، وخيبة امل دعبل ، فكان رأيه رأي سائر الشيعة واهل مذهبهم فقال من قصيدة يمدح فيها اهل البيت .

وإنا لجد شاكرين لابن طاهر الذي حفظ لنا هذه الابيات من القصيدة التي ذهب بها ضياع شعر دعبل وهذا ما بقي منها كما في كتب الادب .

وليس حي من الاحياء نعلمه	من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء في دمائهم	كما تشارك ايسار على جزر

قتل واسر وتحريق ومنهبة ... فعل الغزاة بارض الروم والخزر
ارى امية معذورين ان قتلوا ... وما ارى لبني العباس من عذر
ابناء حرب ومروان واسرته ... بنو معيط ولاة الحقد والدعر
قوم قتلتم على الاسلام اولهم ... حتى اذا استمكنوا جازوا على الكفر

الى قوله :

اربع بطوس على القبر الزكي اذا ... ما كنت تربع من دين على وطر
قبران في طوس خير الناس كلهم ... وقبر شرهم هذا من العبر
ماينفع الرجس من قرب الزكي ولا ... على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرىء رهن بما كسبت ... له يداه فخذ ما شئت او فذر

ولا يحتاج الناقد الى تعليق على هذه الابيات فالمقصود منها اظهار الظلم الذي نال أئمة الشيعة في هذا العصر .

وقد كان يأمل دعبل ان يكون حظهم في بني عمهم احسن من حظهم من بني امية وهو يوضح ذلك في صراحته ، وخيبة الآمال مريرة .

وليس نسبة الرجس الى الرشيد ببدعة فهذا مذهب لم يستطع دعبل في ساعة حنق ان يخفيه ولا سيما وهو يحسب ان عصر المأمون برد الحق الى نصابه والبحث يحتاج الى انصاف وقوة اعصاب .

طاهر بن الحسين

طاهر بن الحسين خزاعي بالولاء ، وركن من اركان دولة المأمون وهو الذي شدد الحصار على بغداد وطاهر نفسه الذي لم يرض بتسليم الامين وخالف غيره من القواد . وامام عينه قطع رأس الامين . وهو الذي أرسله الى المأمون في خراسان .

ولما تم الظفر للمأمون ولاه المغرب اي غربي بغداد وليس لبني العباس من هذه الحرمة في نفوس اهل الشام والجزيرة . فنهض نصر بن شبث يقاوم الخلافة فصدمه طاهر فلم يفعل شيئاً بل رجع كالمهزوم وبقي في الرقة وصارت احداث انتهت ان نقل فيها الى رئاسة شرطة بغداد ثم يسوق المؤرخون خبراً انه دخل على المأمون ساعة طرب فلما رآه المأمون بكي ولما رشى طاهر خادم المأمون وكان مقربا منه سأله فقال « انما ذكرت أخي الأمين حين رأيت قاتله طاهراً » فلما علم طاهر بالامر طلب من الوزير احمد بن ابي خالد ان يبعده عن بغداد فولي خراسان بضمانة الوزير للمأمون . وفي خراسان قطع الخطبة

للمأمون ولكنه مات في تلك الليلة وولي الأمر بعده ابنه عبدالله بن طاهر وهو الاديب المشهور .

هذا امير خزاعي والولاء عندهم يقوم مقام النسب وقد كان دعبل يدل عليه بالنسب وبالمذهب وكان يأمل ان تتحقق عنده رغائبه والعصر لم يكن مما يحمد ، وكانت اماني دعبل اماني شاعر طموح وطلباته لا تنقطع ومراجعته اياه متواصلة ولكن الوالي القائد غير الشاعر .

ولا ادري في اية ساعة اراد دعبل ان ينزل القائد على رأيه ولما ابى نفث دعبل .

أباذا اليمينين والدعوتين ... ومن عنده العرف والنائل
اترضى لمثلي اني مقيم ... ببابك مطرح خامل
رضيت من الود والعائدا ... ت ومن كل ما أمل الآمل
بتسليمه بين خمس وست ... اذا ضمك المجلس الحافل
وما كنت أرضى بذا من سواك ... ايرضى بذا رجل عاقل
وان ناب شغل ففي دون ما ... تدبره شغل شاغل
عليك سلام فأني امرؤ ... اذا ضاق بي بلد راحل

هذا قول مدل بقرابة وحسن ظن .

ويقول الادباء إن ابياتاً اخرى قالها لعبدالله بن طاهر ولكنها حرية بطاهر نفسه وقد رويت انها في احد امراء الرقة ونفسها وغايتها ترجح ان تكون في طاهر وهي :

ماذا اقول اذا اتيت معاشري   صفراً يداي من الجواد المجزل
ان قلت اعطاني كذبت وان اقل   ضن الامير بماله لم يجمل
ولانت اعلم بالمكارم والعلا   من ان اقول فعلت ما لم تفعل
فاختر لنفسك ما اقول فانني   لا بد مخبرهم وان لم أسأل

وهذه الدعابات وهذا الادلال مما لايحتمله هذا العصر، ولا يحتمل دعبل هذا الجفاء ولا سيما وقد ضاع أمله في هذه الدولة التي لم يبق فيها غير المأمون نفسه وهو يسير في بحر خضم من هذه الاهواء وتكاد دفة السفينة تفلت من يديه .

كان طاهر يلقب بذي اليمينين لانه عندما كان قائد المأمون وصدم جيش الامين قبض بيديه الثنتين على سيفه وضرب القائد فقتله فلقب بذي اليمينين لان تلك الضربة كانت آية الغلبة . ويقابله من ذلك انه كان اعور فرأى دعبل في ساعة فكاهة وسخرية والم مجالاً فهتف

وذي يمينين وعين واحدة
نقصان عين ويمين زائدة
نزر العطيات قليل الفائدة

واما الابيات المشهورة الرائعة في حراقة ابن الحسين فيغلب انها قيلت لعبدالله بن طاهر بن الحسين وان كان الشعر لم يتسع لذكر النسب .

وقوله حراقة ابن الحسين يعني عبدالله .

والابيات مشهورة فقد ركب عبدالله حراقة في دجلة فحاذاه دعبل وكتب رقعة وسلمها اليه فاذا فيها .

عجبت لحراقة ابن الحسين كيف تسير ولا تغرق
وبحران من تحتها واحد وآخر من فوقها مطبق
واعجب من ذاك عيدانها وقد مسها كيف لا تورق

وعبدالله نفسه هو الذي روى اخبار هجاء دعبل على الوجه الذي اراد في معرض الذم واشاع عنه هذه المخازي المعروفة . وهو يقول ان كل حق لابي عند دعبل قد غمط اذ لما بلغه موته قال :

وابقى طاهر فينا خلالا عجائب تستخف بها الحلوم

ثلاثة اخوة لأب وام　　تمايز عن ثلاثهم أروم
فبعضهم يقول قريش قومي　　ويدفعه الموالي والصميم
وبعض في خزاعة منتهاه　　ولاء غير مجهول قديم
وبعضهم يهش لآل كسرى　　ويزعم انه علج لئيم
فقد كثرت مناعبهم علينا　　فكلهم على حال زنيم

هذه رواية عبدالله بن طاهر في ابن عساكر اما رواية الاغاني عن محمد بن القاسم ابن مهدوية فهي مضطربة نوعاً وتنقص بيتاً اخل بها .

ولو جرينا على المعقول لرأينا عبدالله اهجى من دعبل بروايته عنه .

ولا يبدو هجاء دعبل طاهراً ما قررنا من انه يمدحه عندما يكون على رأيه ومذهبه ثم يهجوه عندما يخرج ويقف المواقف الشاذة .

النزارية والقحطانية

لما قال الكميت بن زيد الاسدي الهاشميات المشهورة في ايام بني امية ، اتى الطالبيين وبني هاشم ينشدهم اياها ، فحباه منهم من كان لديه مال فقال: « انما تقال فيكم لله ، وما كنت لآخذ على شيء جعلته لله ملاً ولا ثمناً » .

وأخيراً اقترح عليه عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن ابي طالب وكان ذاهمة وحنكة كما يقول المسعودي .

« ان ابيت ان تقبل فاني رأيت ان تقول شيئاً تعصب به بين الناس لعل فتنة تحدث فيخرج من بين اصابعها بعض ما يحب » .

فابتدأ الكميت يقول قصيدته التي يذكر فيها مناقب قومه من مضر ويكثر فيها من تفضيلهم ، ويطنب في وصفهم ، وانهم افضل من قحطان . فعصب بها بين اليمنية والنزارية وهي قصيدته المشهورة وأولها .

إلا حييت عنا يا مدينا وهل ناس تقول مسلمينا

الى ان انتهى الى قوله تصريحاً وتعريضاً باليمن فيما كانه من أمر الحبشة وغيرهم وفيها قوله :

لنا قمر السماء وكل نجم — تشير اليه ايدي المهتدينا
وجدت الله اذ سمى نزاراً — واسكنهم بمكة قاطنينا
لنا جعل المكارم خالصات — وللناس القفا ولنا الجبينا
وما ضربت هجائن من نزار — فوالج من فحول الاعجمينا
وما حملوا الحمير على عتاق — مطهرة فيلفوا مبلغينا
وما وجدت نساء بني نزار — حلائل اسودينا واحمرينا

وهي قصيدة طويلة كان لها ابعد الاثر في القبائل العربية فافتخرت نزار على اليمن وافتخرت اليمن على نزار وأدلى كل فريق بما له من المناقب وتحزبت الناس وثارت العصبية في البدو والحضر وكان من أثرها ذهاب دولة بني امية (١) .

وفي أيام شاعرنا دعبل ـ الايام السمحة المضطربة ـ عاد الناس سيرتهم الاولى فرأينا كثيراً من فحول الشعراء ينظمون في هذا المعنى ومن اشهرهم ابو نواس وقد سجن على تفضيله اليمانية . فلم يجد دعبل بداً

---

(١) عن المسعودي

من الادلاء بدلوه وهو المنيف . وكيف يهجو النزارية والنبي وآله فيها ؟ لذلك سلك مسالك حسان بن ثابت يوم قام يناضل عن النبي والاسلام !

اطال دعبل في هـذا الرد حتى ذكر التنوخي انها ستمائة بيت وانه قد حفظها كلها لما فيها من مفاخر قومه .

اما ما وصل الينا من هـذه النقيضة العظمى فهو قليل لا يروي غلة ولا يصلح لغير التمثيل وهـذا ما عثرت عليه فيما بين يدي من المراجع .

افيقي من ملامك يا ظعينا كفاك اللوم مرُّ الاربعينا
الم تحزنك احداث الليالي يشيبن الذوائب والقرونا
احي الغرمن سروات قومي لقد حييت عنا يا مدينا
فان يك آل اسرائيل منكم وكنتم بالاعاجم فاخرينا
فلا تنس الخنازير اللواتي مسخن مع القرود الخاسئينا
بايلة والخليج لهم رسوم وآثار قدمن وما محينا
وما طلب الكميت طلاب وتر ولكنا لنصرتنا هجينا
لقد علمت نزار ان قومي الى نصر النبوة فاخرينا

فقوله الاخير صريح انه لا يتعرض للنبوة وان نصرة الخزاعيين للنبوة لا تحتاج الى تدليل فهي في كل زمان وقد سبقت النبوة واتصلت بعبد المطلب ثم بالنبي . وفي الاسلام كانوا اول من لبى . ولم يزالوا في عصر دعبل في الرعيل الاول في كل مظهر يمت الى النبي وآله .

وتكرار كلمة فاخرينا قبل استيفاء شرط العروض يدل على اختيار الابيات. لقد ذاعت هذه النقيضة حتى رواها كثير من الادباء والمتطفلين وكلهم تفعل فيهم العصبية - حتى في هذا العصر - فعل النار بالهشيم .

نزل دعبل مع صديقه - رزين العروضي - في بعض أسفاره - بقوم من بني مخزوم فلم يقروهما ، ولا احسنوا ضيافتهما فقال دعبل :

عصابة من بني مخزوم بت بهم   بحيث لا تطمع المسحاة بالطين

ثم التفت الى رزين وقال اجز فاجاب :

في مضغ أعراضهم عن خبزهم عوض   بني النفاق وابناء الملاعين

فتصدى لدعبل شاعر بني مخزوم واسمه عيسى بن الوليد ولكنه معروف بابي سعد المخزومي وهو من الشعراء المتقدمين فترك رزينا إذ لم يكن يستحق الرد ولم يجد اليه سبيلاً واجاب دعبلاً مدعياً الغيرة على النزارية والكميت .

واعجب ما سمعنا او رأينا هجاء قاله حي لميت
وهذا دعبل كلف معنى بتسطير الأهاجي في الكميت
وما يهجو الكميت وقد طواه م الردى إلا ابن زانية بزيت

فتلقفه دعبل وصب عليه جام غضبه وقد ترك النقائض والخلائف وجعل يتخذ من هذا الشاعر الجريء على دعبل غرضاً يصوب اليه نباله السامة وقد سلك مسلك جرير المشهور : اي خير الهجاء ما يضحك : فقال فيه واوجع واتخذ طريقة طريفة : فقد جمع حوله الصبيان وفرق بينهم جوزاً وجعل يلقنهم وهم يرددون .

يا أبا سعد قوصرة (١) زاني الاخت والمره (٢)

ويتبعها بالفاظ السوقه ، والصبيان يصيحون في أثره حتى لم تكن الارض تسع ابا سعد المخزومي . وكان يقول « واي شيء ينفعني اجود الشعر فلا يروي ويفضحني برديئة ولا افضحه بجيدي اقول في دعبل مثل قولي .

ليس لبس الطيالس من لباس الفوارس

(١) القوصرة : وعاء للتمر كناية عن المرأه .
(٢) والمرة : المرأة او لغة فيها وهي لغوية .

وهي قصيدة عامرة :

فلا يلتفت اليها في عصرنا هذا إلا علماء الشعر ويقول دعبل .

يا أبا سعد قوصرة زاني الاخت والمره

فوالله لقدرواها صبيان الكتاتيب ومارة الطرق والسفل فما أجتاز بموضع إلا سمعته من سفلة الناس يهدرون به فمنهم من يعرفني فيعيبني ومنهم من لا يعرفني فاسمعه منه لسهولته على لسانه »

واتسعت دائرة هذا الهجاء وتفنن كلاهما فيه ، ولم يكن يقتصر على العصبية بل خص به بني مخزوم حتى خشوا العار ، فاجتمعوا في بغداد ونفوا ابا سعد منهم وكتبوا عليه كتاباً ، واشهدوا انه ليس منهم فغضب ابو سعد ونقش على خاتمه « ابو سعد العبد بن العبد بريء من بني مخزوم » فقال دعبل .

هم كتبوا الصك الذي قد علمتم عليك وشنوا فوق هامتك الفقرا

وفي مقابل ذلك كان الخزاعيون يفدون دعبلاً بكل غال وقال احدهم لابن الكلبي العالم النسابة « إن دعبلا قد قطعنا فلو أخبرت الناس انه ليس من خزاعة » فقال له : « مثل دعبل تنفيه خزاعة ،

والله لو كان من غيرها لرغبت فيه حتى تدعيه ، دعبل والله يا اخي خزاعة كلها »

ودعبل يعلم ذلك ويعلم أن خزاعة من جهة وان الشيعة من جهة اخرى وأن زمانه الذهبي - زمن المأمون - يهون عليه كل عسير .

وحسب هؤلاء المساكين - ابي سعد وغيره - ان يغيروا قلب المأمون عليه ولا سيما وقد عتب دعبل في أحد مواقف المأمون يوم كان يسود وكانت ساعة خرج فيها الشاعر عن معقوله فقال في المأمون .

ويسومني المأمون خطة ظالم	او ما رأى بالامس رأس محمد
نوفي على هام الخلائق مثلما	توفي الجبال على رؤوس القردد
ونحل في اكناف كل ممنع	حتى يذال شاهقاً لم يصعد
إني من القوم الذين سيوفهم	قتلت أخاك وشرفوك بمقعد
ان التراث مسهد طلابها	فاكفف مذاقك عن لعاب الاسود
لا تحسبن جهلي لحلم ابي فما	حلم المشايخ مثل جهل الامرد
شادوا بذكرك بعد طول خموله	واستنهضوك من الحضيض الاوهد

فلما سمع المأمون الابيات ما زاد على ان قال « كذب والله متى

كنت خاملاً وإني لخليفة وابن خليفة واخو خليفة فتى كنت خاملاً فرفعني دعبل » .

واتخذ اعداء دعبل هذا القول وسيلة للايقاع بدعبل عند المأمون ومنهم ابو سعد المخزومي فكان اثيراً عند المأمون فكان ينشده هجاء دعبل هذا وغيره مما قاله في الخلفاء ، يحرضه على قتله فلم يجد عند المأمون - بالطبع - بغيته ، بل كان المأمون يدفعه ويغير الموضوع فيقول « الحق في يدك والباطل في يد غيرك والقول لك ممكن فقل ما يكذبه واما القتل فلست استعمله » .

وبهذه الروح لقي ابراهيم بن المهدي بعد أن عفا عنه وصالحه فكان يروي هجاء دعبل يثير سخطه عليه . اما المأمون فما كان يعدم وسيلة يصرفه ويضحك من هجاء دعبل لابراهيم ويقول قد صفحت عنه لقوله .

ان كان ابراهيم مضطلعاً بها فلتصلحن من بعده لمخارق

اذ قد قرنتا بمخارق وزلزل .

واستطال هذا الهجاء بين ابي سعد ودعبل حتى بعد المأمون .

ولا بد لي من ذكر نموذج منه وهو ما يستطاع الجهر به .

ان ابا سعد فتى شاعر يعرف بالكنية لا الوالد

ينشد في حي معد ابا ضل عن المنشود والناشد

فرحمة الله على مسلم ارشد مفقوداً الى فاقد

واخيراً فتقت الحيلة والعبقرية المخزومي وقد قصر في هجاء دعبل ان جعل يزيد في نقيضته مما يحل معه دم دعبل فقد روي ان أحد الادباء اراد ان يسمع القصيدة النونية هذه ويرويها عن دعبل فلما وصل في قوله الى هذا البيت .

من أي ثنية طلعت قريش وكانوا معشراً متنبطينا

قال دعبل معاذ الله ان يكون هذا البيت لي . ثم قال لعنه الله وانتقم منه يعني ابا سعد المخزومي .

ولم يقتصر الهجاء القبلي على دعبل وابي سعد بل تعداه الى شعراء خزاعة فرأينا ابن دعبل عليا يساعد أباه في ذلك وابن عم دعبل ابا الشيص يقول فيه ايضاً ولكن قصر خلافة المأمون كان لها اشد الاثر في نتيجة هذه المشادة .

بعد المأمون

توفي المأمون سنة ٢١٨هـ. وبقي دعبل حتى سنة ٢٤٦هـ. وثمانية وعشرون عاماً ليست بالعمر القصير على شيخ قد شبع من الايام. اما حيوية دعبل لم تخمد وجذوته لم تنطفئ. فقد خاب ظنه بالأيام بعد المأمون. ولو كان كغيره لاستكان ولزم بيته وقد قام المعتصم وهو من الشدة بحيث لاينكر، وقد هجر بغداد لترسخ سلطته في سر من رأى وينصرف لهذا الجيش الجديد من الموالي الاتراك الذي أعده لتوطيد دعائم الخلافة العباسية في الداخل والخارج وقد وفق كل التوفيق فقد قضى على ثورة بابك الخرمي وعلى ثورة مازيار في المشرق ثم لما استتب له الأمن الداخلي هاجم الروم في عقر دارهم ففتح عمورية وبعد ذلك قتل الافشين وكان حكيماً صارماً.

هذا ما يعرفه التاريخ. اما ما يعرفه دعبل فلم يكن على هذا الغرار فهو المعتصم بن الرشيد وهو الذي لا يهتم بالمذاهب بل هو السني الذي لايوافق هواه وقد جمع حوله كل من لم يكن على هوى دعبل وفتك بابن المأمون العباسي في احدى نزواته، وقد اجتمعت

كل هذه فروى الناس لدعبل .

بكى اشتات الدين مكتئب صب ... وفاض بفرط الدمع من عينه غرب
وقام امام لم يكن ذا هداية ... فليس له دين وليس له لب
وما كانت الانباء تأتي بمثله ... يملك يوماً او تدين له العرب
ولكن كما قال الذين تتابعوا ... من السلف الماضين إذ عظم الخطب
ملوك بني العباس في الكتب سبعة ... ولم تأتنا عن ثامن لهم كتب
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة ... خيار اذا عدوا وثامنهم كلب
واني لأعلي كلبهم عنك رفعة ... لانك ذو ذنب وليس له ذنب
لقد ضاع ملك الناس اذ ساس ملكهم ... وصيف واشناس وقد عظم الكرب
وفضل بن مروان يثلم ثلمة ... يظل لها الاسلام ليس له شعب

اما دعبل فينفيها ويقول: وضعها ابن شكله اي ابراهيم بن المهدي فلما يئس من اغراء المأمون رمى هذه للمعتصم وهو لا يحتمل، ويساعد دعبلا في هذا الادعاء ما رواه ابن عساكر باسناده .

« قال دعبل ادخلت على المعتصم فقال لي يا عدو الله انت الذي تقول في بني العباس انهم في الكتب سبعة وامر بضرب عنقي ، وما كان في المجلس الا من كان عدواً لي واشدهم ابن شكلة (ابراهيم بن

المهدي) فقام وقال يا امير المؤمنين انا الذي قلت هذا ونميته الى دعبل فقال له وما اردت بهذا إلا لما تعلم ما بيني وبينه من العداوة فاردت ان اشيط بدمه. فقال اطلقوه فلما كان بعد مدة قال لابن شكلة سألتك بالله انت الذي قلته قال لا والله يا امير المؤمنين وليس احد انظره ابغض الي من دعبل ولكنه نظر الي بعين العداوة ورأيته بعين الرحمة فجزاه المعتصم خيراً » .

هذه الرواية ان صحت غريبة عن طباع دعبل وعن طباع ابن المهدي وهو الذي كان يترقب موته ويغري به مدة عشر سنوات على الاقل .

يروي هذه الرواية دعبل ليدل على انها له وليست منتحلة والمحقق ان دعبلاً تغير زمن المعتصم عما كان عليه زمن المأمون من الجراءة .

في زمن المعتصم هذا يعزى هرب دعبل من العراق الى الشام ومصر والمغرب ولم يثبت عندي ذلك فقد رأيناه في مصر زمن الأمين وليس له من القوة ما يحمله على الاسفار وهو في هذه السن حوالي السبعين ولاسيما وهم ينسبون اليه انه كان يصحب معه غلاميه شفقاً وثقيفاً يغنيانه .

والمشهور ان المعتصم مات ودعبل متوار عنه وفي هذا التواري اقوال كثيرة ، وانه كان ينزل على الشراة فيعرفونه ويضيفونه ويؤاكلونه ويقول لهم الشعر ويغنيه غلاماه ويحفظونه عند الخليفة الى ما هنالك مما يحتاج الى تدقيق وتحقيق .

وفي سنة ٢٢٧ هـ . مات المعتصم فتنفس دعبل الصعداء وظهر .

وما سمع ان محمد بن عبدالملك الزيات وهو وزيرالمعتصم يرثيه :

قد قلت اذ غيبوه وانصرفوا   في خير قبر لخير مدفون
لن يجبر الله امة فقدت   مثلك إلا بمثل هارون

حتى سمعنا دعبلاً يجهر بدون مواربه معارضاً :

قد قلت اذ غيبوه وانصرفوا   في شر قبر لشر مدفون
اذهب الى النار والعذاب فما   خلتك إلا من الشياطين
ما زلت حتى عقدت بيعه من   اضر بالمسلمين والدين

ومع اسفاف هذا القول ، لم يشك أحد في انه لدعبل والشاعر يقول كما يأتيه وخاصة اذا كان معارضة وقد تكون بديهة . او هو يقربها الى اذهان العامة او كما يقول خصمه « سائغة للسفلة والرعاع ، وهم الاولى ينشرون مثلها .

اما الواثق خليفة المعتصم فلم يكن بالعير ولا النفير وهو موسيقار اديب ولم تدم خلافته غير أربع سنوات لم نستطع ان نرى أثرهـا في دعبل بل وهو قد جاوز العمر بن ركن الى ركن غير مكين . وظل شيطانه ينفث هذا الشعر المقلق . ولم يزل اعداؤه من الشعراء والعظماء يتعقبونه بالقول والمشادة ، لذلك رأيناه بعيداً عن بغداد وسامراء بجوار البصرة يوم مات الواثق فهتف مطمئناً .

الحمد لله لا صبر ولا جلد ولا عزاء اذا أهل البلى رقدوا

خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به أحد

هذا على رثاثه وسذاجته من الشعر الجيد القوي يدل على هذه الروح المطمئنة .

ولا يخفى انه بعد موت الواثق ابتليت الشيعه بجبابرة العباسيين ونيرون العرب كما يقول السيد مير علي في تاريخه (مختصر تاريخ العرب) باللغة الانكليزية .

فضاقت الارض بدعبل وتعاونت عليه السنون وقد امتدت أيامه الى آخر خلافة المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) .

وفي هـذه الايام اتصل بالبحتري شـاعر المتوكل وطبع دعبل لا يتفق مع السكوت فى مثل هذه البيئة ولكننا لم نسمع له إلا بيتاً فاحشاً .

ولست بقائل قذعاً ولكن لامر ما تعبدك العبيد

وفى قوله هذا (ما) كل الهجاء واقذعه .

ومن الطبعي ان يشتد سـاعد اعدائه فى زمن المتوكل وان يضيق ذرعه عن مقاومتهم فسقط فى وسط المعمعة شهيداً .

الهزء عند دعبل

الهزء من دعائم الهجاء وقد رمي اليه فحول الهجائين . اما هذا التشفي واللؤم في منافذ القول فقد خص بهؤلاء الذين يرون في الحياة - على شتى مظاهرها - كرهاً لمن اسيء اليهم خلقاً مثل بشار والحطيئه او خلقاً كابن الرومي واشباهه ، او ان يهجرها الانسان بنفس مرة فيرى فيها كل لؤم كما كان يفعل المعري مثلاً .

اما دعبل فلم يكن من هؤلاء بل هو من اولئك الذين يرون في الحياة متعة وانها وسيلة السمو ، والخلق المثالي ولكنها احيانا تولي مدبرة عن قوم لحكمة لا يفهمها ، وتقبل على آخرين لا يستحقونها ، فهو يدير بصره في من حوله فيرى هؤلاء العظماء وقد انحرفوا في ميولهم عن الحقائق فيقذفهم عن قوس مرنان ، فيصمي ، وحينا يعود الى هداه فيتلهى بمن هم حوله وقد يكونون أقرب الناس اليه ، اما اللؤم الذي يبعده عن الحياة الرافهة فلا نجده في كل ما نظم من هذا المنحى .

والآن امامنا هؤلاء القوم الذين يمثلهم الفضل بن مروان . ومن

هذا الفضل ؟ نرجع الى كتب التراجم فنرى صاحب الفهرست يظهره بكلمة هي من باب هجاء دعبل « خدم المأمون والمعتصم ووزر له وخدم من بعدها الخلفاء ، وكان قليل المعرفة بالعلم ، حسن المعرفة بخدمة الخلفاء » .

اما قوله قليل المعرفة بالعلم فهو علم الرسائل والكتابة ، وحسن المعرفة بالخدمة فيغلب انها تدبير المال وقد كانت من خصائص اهل الذمة .

وهذا الفضل بن مروان بن ماسرخس بالطبع منهم .

وفي المسعودي انه من وزراء المأمون في آخر ايامه . واي احتمال يستطيع دعبل ان يرى الفضل هذا وزيراً بعد الفضل بن سهل والفضل بن يحي واضرابها ان وجد . لذلك مر به يوماً فقال :

نصحت فاخلصت النصيحة للفضل	وقلت فسيرت المقالة في الفضل
الا إن فى الفضل بن سهل لعبرة	ان اعتبر الفضل بن مروان بالفضل
وللفضل في الفضل بن يحي مواعظ	اذا فكر الفضل بن مروان فى الفضل
فابق جميلاً من حديث تفز به	ولا تدع الاحسان والاخذ بالفضل
ولم ار ابياتاً من الشعر قبلها	جميع قوافيها على الفضل والفضل

وليس لها عيب اذا هي انشدت سوى ان نصحي الفضل كان من الفضل

فبعث اليه الفضل بن مروان بدنانير وقال قد قبلت نصحك فاكفني خيرك وشرك .

والمتفحص هذه الابيات لا يرى الجد فيها ولا ذلك الايجاع الذي كنا نحسه عندما يذكر المغتصبين للحق أو عندما يقول في تنفيس الكرب .

اما ان قوافيها كلها على الفضل وان التمحل لا يرى فيها الايطاء في الشعر اي ان كل فضل له معنى فهو مقبول من باب الدعاية .

وارى ان بعض شعراء النهضة الحديثة في العراق ولبنان جروا في حلبة دعبل عندما اختاروا الخال قافية لبعض قصائدهم .

ولم يقتصر هـذا الهزء على الفضل بن مروان فقد رأينا دعبلاً يقول في وزير آخر للمأمون هو ابو عباد وقد ضرب المأمون المثل بجرأة دعبل عندما يهجو مثل هذا الوزير .

اولى الامور بضيعة وفساد امر يدبره أبو عباد
خرق على جلسائه فكأنهم حضروا لملحمـة ويوم جلاد
يسطو على كتابه بدواته فمضمخ بدم ونضح مداد

وكأنه من دير هرقل مفلت حرد يجر سلاسل الاقياد
فاشدد امير المؤمنين وثاقه فاصح منه بقية الحداد

وكان بقية هذا مجنوناً في المارستان فلما قرأها المأمون ضحك وقال لمن كان قريباً منه « والله ما كذب دعبل في قوله » .

وقيل له مرة ان دعبلاً قد هجاك فقال واي عجب في ذلك وهو يهجو ابا عباد ولا يهجوني انا ، ومن أقدم على جنون ابي عباد أقدم على حلمي .

بالطبع هو يتكل على حلم المأمون وهو يعلم العلم كله ان مثل هذا الهزء ينزل على قلب المأمون برداً وسلاماً وقد صدق حدسه . وإلا لماذا لا نرى دعبلاً يهزأ من غير هذين الوزيرين ؟

ويمكن ان نضيف الى هذين الهجاءين ما كان يعبث به في خلواته حينما لم يكن يتحرج ، ولا أدري من كان يروي له هذا الهجاء في جاريته أهي أم غيرها .

اما جاريته فاسمها (غربال) ولكنها في الشعر غير متفقة الوزن فهي اما غراب او غربل بدون اللام وهذي هي الابيات .

رأيت غراباً (غربالا) وقد اقبلت فابدت لعيني عن مبصقه

قصيرة (الخلق) خلق ودحداحة تدحرج في المشي كالبندقه
كأن ذراعاً على كفها اذا حسرت ذنب الملعقه
تخطط حاجبها بالمداد وتربط في عجزها مرفقه
وانف على وجهها ملصق قصير المناخر كالفستقه

هذه صورة ربما كانت صادقة او جسمها الشاعر بتخيله وهي جاريته يتلهى بها او يفكه نفسه في ساعة سرور .

وربما رأى اخرى او هي نفسها فقال مقطوعة يعجبني منها .

صدغاك قد شمطا ونحرك يابس والصدر منك كجؤجؤ الطنبور

ولدعبل مثل هذه المواقف نذكر منها :

اتي دعبل صالح بن عطية الاخجم وكان قبيحاً ومن أصحاب الدعوة فقال يداعبه (وفي الاغاني انه خاطب بها المعتصم) ولايحتاج سخف هذا القول الى نقض فهو من اصحاب الدعوة والقول صريح .

قل للامام ـ امام آل محمد ـ قول امرء حدب عليك محام
انكرت ان تفتر عنك صنيعة في صالح بن عطية الحجام
ليس الصنائع عنده بصنائع لكنهن طوائل الاسلام
اضرب به جيش العدو فوجهه جيش من الطاعون والبرسام

ويمكن ان نعزو هذا الضرب من الهجاء الى الهجاء الفني فهو يتلهى كما يتلهى الرسام بريشته ساعة خلو وراحة . ولا يحسب ان يكون بين روائعه .

اما هؤلاء الحريصون على اظهار الكنوز فلم يكشفوا لنا عن كل ما قال دعبل من الشعر إلا هذه الصور الملونة والتي لا يمكن إلا أن تدل على ذوقهم فقط .

والى هذا الضرب يمكن ان نضيف قوله برسم صورة عامل سأله حاجة فلم يقضها لشغل عرض له دونها .

حواجب كالجبال سود الى عثانين كالمخالي
وأوجه جهمة غلاظ عطل من الحسن والجمال

فقوله اوجه يدل دلالة صريحة على ان الابيات هي المشهورة وما صدر بها هو من تمليقات محبي دعبل فكيف يفسد دعبل ذوقه بان ينسب الوجوه الى رجل واحد ؟

ومن يستطيع ان يهاجم دعبلاً وكل أهل عصره يرهبه ولكن من الناس من لا يقدر الاقدار فقد كان في مجلس فيه جارية ، فعن لها ان تعبث به ويظهر انه كان ايام لا يهتم للجواري ولا للغناء فنهوها

عنه فلم تنته فانشدها بديهاً هازئاً :

تخضب كفاً قطعت من زندها
فتخضب الحناء من مسودها
كأنها والكحل في مرودها
تكحل عينيها ببعض جلدها

وكانت العاقبة ان سيد الجارية قد خسرها ولم ينتفع بها بعد ذلك .

وقد كانت هذه الابيات متداولة وقد اختارها ابو تمام في حماسته ولم ينسبها الى دعبل بل قال : « قال أحدهم » وأبو تمام من معاصري دعبل وسنعرض له .

لون من الهجاء

يجدر بنا ألا ندع هجاء دعبل قبل ان نظهر لوناً آخر من الهجاء وهو الذي نهى عنه عمر بن الخطاب الحطيئة يوماً .

وفي الاغاني رأي ذكره في الكلام عن الحطيئة وكرره ينسبه الى بشار ورأيته في دعبل ايضاً ولكنه على وجه أتم وهو يرجع فيه الى ابي خالد الخزاعي الاسلمي وهو نفسه الذي روى عنه خبر تشطره كما مر :

« قلت لدعبل ويحك قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ووترت الناس جميعاً فانت دهرك كله شريد طريد هارب خائف فلو كففت عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك . فقال ويحك اني تأملت ما تقول فوجدت اكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على الرهبة ولا يبالى بالشاعر وان كان مجيداً اذا لم يخف شره ولمن يتقيك على عرضه اكثر ممن يرغب اليك في تشريفه ، وعيوب الناس اكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرفته شرف ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة ، ولم

يكن ذلك فيه أنتفع بقولك فاذا رآك او جمت عرض غيره وفضحته اتقاك على نفسه وخاف من مثل ما جرى على الآخر. ويحك يا ابا خالد ان الهجاء المقذع آخذ بضبع الشاعر من المديح المضرع ؟ .

هذا قول اشك فيه كل الشك فلم يكن دعبل يهجو لينال الجوائز كما كان يفعل من سبقه ، أو ليكون باب رزق . فقد هجا الخلفاء هجا الرشيد كما قلنا في باب الاستتباع وهو يمدح آل البيت ـ وأهل البيت عنده نقطة الارتكاز ـ وكان بعد موت الرشيد بخمس عشرة سنة على الاقل ، وهجا ابراهيم بن المهدي مدعي الخلافة وهو لا يطمع فيه . وقد زفرزفرة ايام المأمون ساعة لم يكن يطمع في جائزه وكذا القول في المعتصم والواثق والمتوكل .

ماذا ينتظر من ابي سعد المخزومي وامثاله من الشعراء كابي تمام او ماذا ينتظر من أبي عباد غير الجلد ومن الفضل بن مروان غير الهزء .

هؤلاء هم الذين هجاهم فمن منهم ينطبق عليه هذا القول الذي تبجح به صاحب الاغاني بلسان ابي خالد الخزاعي .

اما اللون الذي اريده الآن فهو الاقذاع وقد حدده عمر بن

الخطاب للحطيئة بقوله « هو ان تفاضل بين رجل وآخر وبين قبيلة واخرى » .

وقد كان دعبل امير الهجاء من هذه الناحية وربما كان لاتخاذه عمود الشعر مع صديقه البحتري كما سنذكر قد ابدع في هذا الباب وله فيه لسمات دونها ما للافاعي .

كان القاضي أحمد بن ابي دواد زمن الواثق والمتوكل وزيراً وكان معتزليا ومن الذين تركوا في عصرهم دوياً فلمثل القاضي ولمثل يحي بن اكثم يجب ان يوجه دعبل سهامه ، وكلاهما يقوم مقام الخليفة حتى يكون فصلاً كما فعل يحي بن اكثم زمن المأمون بارجاعة عن المتعة .

يقول دعبل في احمد بن ابي داواد في ساعة جد كل ألجد فيصيب عصفورين بحجر واحد احمد بن ابي دواد والهثيم بن عدي مقذعاً :

سألت ابي وكان ابي عليماً بساكنة الجزيرة والسواد (١)
فقلت له أهيثم من عدي فقال نعم كأحمد من دؤاد

(١) في الفهرست بدل العجز (باخبار الحواضر والبوادي) .

فان يك هيثم من حي قيس فأحمد غير شك من اياد
متى كانت اياد رأس قوم فقد غضب الاله على العباد

وبذكر هيثم هذا نعلم انها قيلت قبل سنة ٢٠٧ هـ عام موت الهيثم وهو عند الحسن بن سهل كما في كتاب الفهرست .

ولما كان القاضي ابن ابي دواد يتعرض لدعبل ويسبه ايام المأمون والمعتصم ويحرضها على قتله كان يهجوه هجاء جدياً مؤلماً يمكن ان يذكر منه يوم زوج القاضي امرأتين من بني عجل في سنة واحدة فقال من قصيدة :

ان كان قوم اراد الله خزيهم فزوجوك ارتغاباً منك في ذهبك
فذاك يوجب ان النبع يجمعه الى خلافك في العيدان او غربك
ولو سكت ولم تخطب الى عرب لما نشبت(١) الذي تطويه من سببك
عد البيوت التي ترضى بخطبتها تجد فزارة العكلي من عربك

وكان فزارة هذا صديقاً لدعبل كما يدعي فلقيه فقال يا أبا علي ما حملك على ذكري حتى فضحتني وانا صديقك ؟ فقال يا اخي والله

(١) الصحيح (نشرت) لموافقة تطويه بعدها .

ما اعتمدتك بمكروه ولكن كذا جاءني الشعر لبلاء صبه الله عز وجل عليك ولم اعتمدك به .

ولقد كرر مثل هذا فقد غضب على ابي نصر بن جعفر بن محمد بن الاشعث وكان دعبل مؤدبا له ولكن ابا نصر عقه فلم يستطع ان يتحمله فقال فيه :

ما جعفر بن محمد بن الاشعث عندي بخير ابوة من عثعث
عبثا تمارس بي تمارس حية سوارة ان هجتها لم تلبث
لو يعلم المغرور ماذا حاز من خزي لوالده اذا لم يعبث

فلقيه عثعث فقال له عليك لعنة الله اي شيء كان بيني وبينك حتى ضربت في المثل في خسة الآباء ؟ فضحك وقال لا شيء إلا اتفاق اسمك واسم ابن الاشعث في القافية او لا ترضى ان اجعل اباك وهو اسود خيراً من آباء ابن الاشعث بن قيس ؟

قد يكون ذلك صحيحاً وهو عبث كله . وهو يخالف ما ذكره الرواة من ان دعبلاً كان يتعمد الهجاء ليكون باباً للكسب .

اما يحيى بن اكثم فلم يكن عند دعبل باحسن من سلفه القاضي احمد بن ابي داود ايام المتوكل فقد ولي القضاء بعد عزل احمد بن

ابي داود سنة ٢٣٧ واتفق انه ولي قاضيين اعورين احدهما على الجانب الشرقي والآخر على الجانب الغربي فلم يستطع دعبل ان تمر به هذه السانحة فانشد .

رأيت من الكبائر قاضيين ... هما احدوثة في الخافقين
قد اقتسما العمى نصفين قدا ... كما اقتسما قضاء الجانبين
وتحسب منهما من هز رأساً ... لينظر في مواريث ودين
كأنك قد جعلت عليه دنا ... فتحت بزاله من فرد عين
هما فأل الزمان بهلك يحيي ... إذ افتتح القضاء باعورين

اما هذا الفأل وما فيه من الاستعارة التهكمية فبالغ حد الاجادة وان كان هذا الهجاء من بضاعة العامة ، وقد رأينا ان دعبلا عندما يريد هجاءه ان يذاع يبسطه ويسهله حتى يكون في مفهوم العامة .

وبالتحقيق نعلم ان شأن دعبل في هجاء الوزير هو لغايته الحقيقية نفسها أي انتقاماً لمذهبه منه وكان القاضي الوزير يحيي بن أكثم أشدهم عنفاً في مذهبه .

وبيت دعبل في الذروة من خزاعة كما رأيت لم يتقدمه إلا بيت بني اهبان مكلم الذئب ولهذا اللقب صلة بعهد النبوة فقد جاء جدهم

الى النبي (ص،) فحدثه ان الذئب اخذ من غنمه شاة فتبعه فلما غشيه بالسيف قال له مالي ولك تمنعني رزق الله فقال له الخزاعي يا عجبا لذئب يتكلم فقال اعجب منه ان محمداً قد بعث بين اظهركم وانتم لا تتبعونه، فبنوه ينتسبون الى مكلم الذئب فخراً .

اما دعبل فلم يستطع ان يحتمل هـذا الادعاء وان يتسامى عليه حتى اقربوه الادنون فقال فيهم مستهزئاً ماشاء .

تهتم علينا بان الذئب كلمكم فقد لعمري ابوكم كلم الذيبا
فكيف لو كلم الليث الهصور اذاً افنيتم الناس مأكولا ومشروبا
هذا السنيدي لايسوى اتاوته يكلم الفيل تصعيداً وتصويبا

شيعية دعبل

هل من ينكر ان دعبلاً كان شيعياً ؟ ومتحمساً جريئاً على اعداء الشيعة ؟ كل من كتب عنه قال هذا القول. ان دعبلاً شيعي . ولكن اين اقواله في الشيعة ؟ قد بقي ستين سنة كما يقول الجاحظ يقول الشعر كل يوم فاين هذا الشعر ؟ والذين حفظوا العلم عن الشيعة اكثر من سواهم . وعصر دعبل هو عصر التدوين وقد بقيت أشعار الفحول من اهل عصره وغير الفحول . وقد امتدت ايام دعبل حتى امكن ان يجمع شعره وكان أبنه شاعراً يمكن ان يحافظ على تراث ابيه وصاحب الفهرست وقد كان سنة ٣٧٧ هـ . لم يزل حياً وهو شيعي يذكر ديوانه ثلاثمائة ورقة فكيف ذهب هذا الديوان ؟

لم استطع ان اعثر عليه مطبوعاً مع كل تنقيبي وما سمعت انه مخطوط في مكتبة . وبلا شك ان هذه القصائد في الشيعة قد ذهبت بعد ابن النديم صاحب الفهرست . ولو لم يحفظ لنا ياقوت التائية الكبرى التي دعوتها بآية العصر لما كان دعبل إلا هجاء ، خبيث اللسان كما هو معلوم عند جميع من يسمع به .

اما وقد نقبنا عنه ورددنا كل هجاء الى اصوله فليس من شك ان شيعيته ملأت عليه كل تفكير . وكان كيفما فكر ففيها يفكر ، وكل حدث له يتصل بها ، حتى لما قال نقيضته الكميت وكانت سبب بلائه ذكر فيها الفخر بالنبي وآله .

ما هي هذه القصائد التي قالها في علي وآله من الأئمة ؟ ماذا اعد للأئمة في زمانه وقد عاصر منهم على الاقل اربعة ؟ لم نسمع إلا في هجاء الرشيد القول في الامام الرضى بعد موته .

وقد من علينا ياقوت ببعض قصيدة قالها في رثاء الحسين عليه السلام نذكرها آسفين لضياع باقيها .

رأس ابن بنت محمد ووصيه	يا للرجال على قناة يرفع
والمسلمون بمنظر وبمسمع	لا جازع من ذا ولا متخشع
ايقظت اجفاناً وكنت لها كرى	وانمت عيناً لم تكن بك تهجع
كحلت بمنظرك العيون عماية	واصم نعيك كل اذن تسمع
ما روضة إلا تمنت انها	لك مضجع ولخط قبرك موضع

ايقول دعبل في نقيضة واحدة ستمائة بيت ولا يبكي الشهيد إلا بهذه القطعة التي هي كالعنوان للكتاب وبه يستدل .

وقد عثرت على بيتين في امير المؤمنين علي بن ابي طالب اجاد فيهما ما اراد :

كأن سنانه ابداً ضمير فليس له عن القلب انقلاب
وصارمه كبيعته بخم فوضعها من الناس الرقاب

امثل هذا الشعر يذهب ضياعاً ؟ يظهر ان للشعر كما للناس حظوظاً .

دخل عبدالله بن طاهر على المأمون وجعل يعرض بدعبل والمأمون يضحك وقد طابت نفسه فقال اي شيء تحفظ يا عبدالله لدعبل . قال احفظ ابياتاً له في اهل بيت امير المؤمنين قال هاتها ويحك فانشده قول دعبل .

سقيا ورعيا لايام الصبابات ايام ارفل في اثواب لذاتي
أيام غصني رطيب من لبانته أصبو الى غير جارات وكنات
دع عنك ذكرى زمان فات مطلبه واقذف برجلك عن متن الجهالات
واقصد بكل مديح أنت قائله نحو الهداة بني بيت الكرامات

قال المأمون انه قد وجد والله مقالاً فقال ونال ببعيد ذكرهم مالا يناله في وصف غيرهم .

ومن يصدق ان شهادة المأمون تقتصر على سماعه هذه الابيات

الاربعة ؟ ألا يخجل صاحب الاغاني عندما يقف عند هذا الحد ويذكر من سخافات دعبل في مقابل ذلك قصائد ؟ وقصده لا يخفى وان كان شيعياً .

ولنا قصة توضح رأيه ورأي الناس فيه .

فقد جرى بينه وبين احد ولد الزبير بن العوام كلام اثر عربدة وادعى الزبيري على دعبل انه شتم صفية بنت عبـد المطلب واشتـد القاضي متحمساً فطلب دعبلاً فهرب من الغوغاء وجاء القاضي وختم بابه فكتب اليه دعبل برقعة فيها « ما رأيت قط اجهل منك إلا من ولاك فانه اجهل ، يقضي في العربدة على النبيذ ويحكم على خصم غائب ويقبل عقلك اني رافضي اشتم صفية بنت عبدالمطلب ، سخنت عينك ، امن دين الرافضة شتم صفية ؟! » .

ذكرت كلام دعبل بحرفيته وارى الضعف والاسفاف فيه ولـكن لا يتعارض مع ذكر الحقيقة فقوله الرافضة ودين الرافضة . وهل كان الرافضة في زمن دعبل اسماً يطلق على الشيعة الاماميـة ؟ كيف نفسر قول علي بن الجهم فى المعتصم .

ورافضة تقول بشعب رضوى   امام خاب ذلك من امام

امام من له عشرون الفاً من الاتراك شارعة السيف

والذي في شعب رضوى هو محمد بن الحنفية .

قد يكون الرافضة اسم يطلق على كل من يتشيع لعلي .

اما الشيء الذي يدعو الى الشك فهو اقراره بشرب النبيذ والعربدة . فاذا لم يكن ثم صفية من دين الرافضة ايكون شرب النبيذ والعربدة من هذا الدين ؟

لم يستطع متعنت ان يتهم دعبلاً بانحرافه يوماً عن شيعيته ولم يكن يقول بالتقية فهو يصرح اني احمل خشبتي ستين سنة ولم اجد من يصلبني عليها وهو يدافع بلسانه ما استطاع ولو دعي لحمل السلاح لما تأخر .

لم نسمع بانه اشترك في شغب او ساهم في ثورة وانه كان يعيش بالأمل المرجو وانه كان يجهر :

فيا نفس طيبي ثم يا نفس ابشري فغير بعيد كل ما هو آت
فان قرب الرحمان من تلك مدتي واخر من عمري لطول حياتي
شفيت ولم اترك لنفسي رزية ورويت منهم منصلي وقناتي

فانه قد وفر منصله وقناته لليوم المنتظر .

وذكر انه كان يتقلد السيف وقد هجم مرة على عدوه ابي سعد المخزومي فهرب منه وجعل يتبعه شاهراً السيف حتى غاب عنه .

كان الخلفاء يعادون مذهبه هذا وكان الشراة وهم في هذه الايام من الخارجين على السلطان ويجتمعون في كثير من الاعتقادات مع دعبل » فيلقونه ولا يؤذونه ويؤاكلونه ويشاربونه ويبرونه « ان الغريب يسعد الغريبا .

ثم يذكر جميع الرواة انه كان يوماً في البصرة وعلى رأسه غلامه ثقيف فمر به اعرابي يرفل في ثياب خز فقال دعبل لغلامه ، أدع لي هذا الاعرابي فأوما الغلام اليه فجاءه . فقال له ممن الرجل؟ قال من بني كلاب قال من اي ولد كلاب انت ؟ قال من ولد ابي بكر . قال دعبل او تعرف القائل ؟

ونبئت كلباً من كلاب يسبني ومحض كلاب يقطع الصلوات

فان انا لم اعلم كلاباً بانها كلاب واني باسل النقمات

فكان اذن من قيس عيلان والدي وكانت اذن امي من الحبطات

وهذا الشعر لدعبل يقوله في عمرو بن عاصم الكلابي .

فقال له الاعرابي ممن انت فكره ان يقول له من خزاعة فيهجوهم فقال انا انتمي الى القوم الذي يقول فيهم الشاعر .

اناس علي الخير منهم وجعفر وحمزة والسجاد ذو الثفنات

اذا فخروا يوماً اتو بمحمد وجبريل والفرقان ذي السورات

فوثب الاعرابي وهو يقول « مالي الى محمد والقرآن والسورات مرتقى » وما اظنهم يمنون اخلاص دعبل في هذه الرواية وانه كان يتستر تحت هذه الاسماء !

شعر دعبل

يقول الجاحظ « سمعت دعبل بن علي يقول مكثت ستين سنة ليس من يوم ذر شارقه إلا وانا اقول فيه شعراً » .

هذا قول شاهد عيان ، فقد عاصر الجاحظ دعبلاً وربما كان من لداته، وقد عاش بعد دعبل تسع سنوات وان كانت بمثابة الموت ـ عاش السنوات الست الاخيرة مفلوجاً ـ ولو اخذنا الكلام على حقيقته لوجدناه مقتصداً فكيف فعل بالعشرين السنة الاخيرة . انه شاعر وانه يقول الشعر دائماً وعلمنا انه قال الشعر وهو غلام وانه من هؤلاء الشعراء الذي نشأوا في الكوفة وقد عاشروا اعرابها واعراب البوادي .

ومع الاسف اعلن ان هذا الشعر الكثير لم يظهر حتى اليوم لندرسه درساً مشبعاً وان ما بين ايدينا منه لا يظهر إلا لوناً واحداً مهما نلونه ونسبغ عليه من التحاليل .

والادب لا يقاس ، اي لا يكون قليله دليلاً على كثيره فقصيدة وقصيدتان لشاعر لا يكفي ان تظهر حقيقته وان كانت تكشف لنا عن تلك الناحية على الاقل . ان شعراً يقال في مدة سبعين سنة كما يقول دعبل اذ سمع منشداً :

اين الشباب واية سلكا ؟ لا ، اين يطلب ؟ ضل بل هلكا

قال اني قلت هذا الشعر من سبعين سنة .

ان شعراً تتفاوت ايام انشاده لا يمكن ان يقاس كثيره على قليله . واذا نظرنا الى قطعة اين الشباب ، وهي قطعة شعر لغلام في بدء حياته الشعرية ، الا نحكم على شعره الكمالي بشعر الفحول ؟

عند هذا نقول يجب ان نعتمد على الاقوال والروايات في الدرجة الاولى لضياع شعره وتقصينا زمانه ولا سيما ما كان في أوله والى اية صلة يمت من هذه المدارس الأدبية التي نعرف ؟

ذكر انه كان يتخرج علي مسلم بن الوليد ـ ويظهر ان مسلماً كان ذا حظ كبير من الشهرة ـ ربما كان لهذا الجديد الذي اتخذه وهو البديع وكان محبباً الى النفوس وربما كان لمعاصريه من الشعراء كابي نواس مثلا دخل في ذلك . فان مجلس ابي نواس كان يعزى اليه من المخازي ما يبعد عنه الناشئين .

ومسلم وان كان صريع الغواني ـ إلا انه كان يجتنب هذه الشائنات حتى هذا اللقب ويعده لقب ضعة وتعيير فكان يهتف :

لاتدع بي الشوق اني غير معمود نهى النهى عن هوى الغيد الاماليد

لذلك كان أهل الجد يفضلون مسلماً ، وربما كان للبرامكة اثر في ذلك فلم يكن ابو نواس يستسيغهم ، ولا كانوا يستسيغونه بينما كانوا يقربون مسلماً حتى الفه الفضل بن سهل من مواليهم وقد ولاه عملاً للمأمون بينما كان ابو نواس مطرحاً وربما في السجون .

وقد رأينا البحتري الناشيء يرى في مسلم وابي تمام كل شرف وغاية كل أمل ، ولا يذكر ابا نواس .

بعد هذا نعلم لماذا اختار دعبل مسلماً في اول عمره ، ولكن الشاعر لم يستسغ طريقة مسلم بل مجها كما مج البحتري طريقة ابي تمام بعد ان خبرها ، فعمد الى الطريقة القديمة الصريحة الجزلة وابتعد ما شاء عن هذا البديع الجديد .

وكان دعبل كلما تقدم في الايام والشعر رأى ان للقديم حرمة . وان هذا الجديد لا يدانيه ولذلك كان البحتري يقول « دعبل بن علي اشعر عندي من مسلم ومذهبه اشبه بمذاهبهم » .

لم يكن هذا رأي البحتري وحده بل كان رأي كثير من معاصريهم فكان عظماؤهم كما هي عادتهم مع علماء الكوفة يمهدون الى

دعبل بتأديب صغارهم كالفضل بن العباس . . . بن محمد بن الاشعث مع وجود شعراء كثيرين غيره .

كل علماء الشعر يرون رأي البحتري في دعبل إلا من كان دعبل يشارهم كابي تمام ، وكان من الطبيعي ان يكون مجانباً لابي تمام هذا الشامي الذي جاء غريباً يدعي الشيعية ويمدح آل البيت ولما وصل الى الخلافة اذا هو عبد المعتصم ورجال المعتصم ودعبل هو من هو من المعتصم .

كما ان شعر ابي تمام لم يرق لدعبل وشعره الجزل الراقي ، الناصع البعيد عن التعقيد والغريب . وكيف يكون هذا شاعر الخلافة يذكر وقائع الاسلام ويتغنى بها . لذلك لما مات محمد بن حميد الطوسي ورثاه ابو تمام برأيته الرائعة .

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

تصدى له دعبل وجعل يعيد ابياتها بيتاً بيتاً الى شعر قديم ، فكان لذلك اثر شديد في نفس ابي تمام وجعل يترقب له كل سانحة .

فلما هجا دعبل ابا نضير بن حميد الطوسي بقوله من قصيدة :

اني هززتك لا آلوك مجتهداً لو كنت سيفاً ولكني هززت عصا

لجأ ابو نضير الى ابي تمام وكلاهما طائي فقال ابو تمام يجيب دعبلاً - ولم تكن بضاعة ابو تمام بالهجاء مما يستحب - من قصيدة :

وما وفد المشيب عليك إلا   باخلاق الدناءة والوضاعة (١)

الى ان يقول :

مناسب طيء قسمت فدعها   فليست مثل نسبتك المشاعه
وروح منكبيك فقد اعيدا   حطاماً من زحامك في خزاعه

فرد عليه دعبل :

انظر اليه والى ظرفه   كيف تطايا وهو منشور
ويلك من دلاك في نسبة   قلبك منها الدهر مذعور
لو ذكرت طي على فرسخ   اظلم في ناظرك النور

ذكرت هذا الهجاء برهاناً على هذا الجفاء بين دعبل وابي تمام لاختلاف شعريهما ومذهبيهما في البديع وعدمه .

اما شعر دعبل فكله يصلح للتمثيل إلا ما كان معاتبة واستهزاء وعندي ان مثل هذه القطعة من الشعر تجري مع اسمى الشعر العباسي :

---

(١) في الروايات والرضاعة والتصحيف بين الراء والواو ظاهر .

ألم يأن للسفر الذين تحملوا ... الى وطن قبل الممات رجوع

فقلت ولم املك سوابق عبرة ... نطقن بما ضمت عليه ضلوع

تبين فكم دار تفرق شملها ... وشمل شتيت عاد وهو جميع

كذاك الليالي صرفهن كما ترى ... لكل اناس جدبة وربيع

هذا هو الشعر الناصع المشرق السهل المتمنع الذي يمت الى الشعر القديم والذي وجد فيه البحتري ، المشرق البيان كل غاية ، اما نطق هذه السوابق فهو البيان كله او كما يقول البحتري في مثل هذا الموقف « لا يشاب البيان فيهم بلبس » .

اما الجدبة والربيع لكل اناس فهي اعرابية محببة .

وقد قال المأمون - وذوقه الشعري لا ينكر - عندما سمعها « ما سافرت قط وإلا وكانت هذه الابيات نصب عيني في سفري وهجيري ومسليتي حتى اعود » .

وطريقة البحتري ظاهرة في شعر دعبل او قد اتفقا على الوجهة التصويرية في ابراز المعاني يقول دعبل في ما يدعو اليه .

فمتى سألتك حاجة ابداً ... فاشدد بها قفلاً على غلق

وقف الاخاء على شفى جرف ... هار فبعه بيعة الخلق

واعد لي قفلاً وجامعة فاشدد يدي بها الى عنق

اعفيك مما لا تحب بها واسدد علي مذاهب الافق

ما اطول الدنيا واعرضها وادلني بمسالك الطرق

وهذه صور لا تحتاج الى توضيح ، القفل على الغلق وبيع الاخاء بيع الثوب واعداد القفل والجامعة لشد الايدي الى العنق الى ما تنطوي عليه هذه المرامي البعيدة ، كلها مما يحفل بها شعر دعبل .

وأحرِ بنا ان نذكر قطعته الشهيرة في الشيب فهي نموذج من شعره الفني القوي قالها وهو غلام فما له وللشيب وهو في مطلع الشباب والدنيا باسمة له ، فما الذي اجرى ذكر المشيب على لسانه . قد يتطرف الشاعر اذ يجد شعرة بيضاء في مفرقه كما وقف ابو فراس الحمداني امام المرآة فأنشد :

وما اربت على العشرين سني فما شأن المشيب الى شبابي

اما هذا الغلام الايد الذي طاول المائة من السنين فلمَ يقول الشعر في المشيب ؟ ولا يقتصر على بيت هو لمح تكفي اشارته كما يقول البحتري في الشعر بل جمل يردده ويكوره ، وقد سمعه الرشيد ولم ينفر منه كما كان ينفر عند ذكر المشيب لان قائله غلام غير متهم عنده

ولا معرض . لله در الشعراء كيف يظهرون ما لا يعنون .

ورأيت له نوعاً من الشعر فيه هـذا التكلف البعيد عن طبعه كقولهم : قدم صديق لدعبل من الحج فوعده انه يهدي له نعلاً فأبطأ عليه فكتب له :

وعدت النعل ثم صدفت عنها كأنك تبتغي شتماً وقذفاً
فان لم تهدلي نعلاً فكنها اذا اعجمت بعد النون حرفاً

اي يريد انه نغل وتلاعبه بهذه السفاسف يدل على انبساط نفس ولم يكن هذا التلهي في اهل طبقته وان رووا عن ابي نواس مايشبهه وهو من عيوبهم .

اما مذهب دعبل في الشعر فقد صرح فيه بما وصل الينا :

لفوني ولما ينعني غير شامت وغير عدو قد اصيبت مقـاتله
يقولون ان ذاق الردى مات شعره وهيهات عمر الشعر طالت طوائله
سأقضي ببيت يحمد الناس أمره ويكثر من أهل الرواية حامله
« يموت رديء الشعر من قبل أهله وجيـده يبقى وان مات قائله »

ثم عاد فنظم المعنى في قافية اخرى من قصيدة :

لا تعرضن بمزح لامرىء طبن ما راضه قلبه اجراه في الشفة

فرب قافية بالمزح جارية   مسنونة لم يرد انماؤها نمت

اني وان قلت بيتاً مات قائله   ومن يقال له والبيت لم يمت

وقد خيبت الايام أمله فقد مات شعره بعد موته، وقد يبعث حياً في احدى المكاتب المهجورة ، ولوعلم الشيخ دعبل ان كثيراً من سخافات ابن الحجاج واقذار ابن سكرة وابن لنكك بعد عصره قد حفظت لليوم وضاعت قصائده التي وقف حياته عليها والتي كان يخاطر برأسه لاجلها ، لغير ظنه بالايام .

كم كانت مجالس دعبل مما تشتهي عند النابهين من الشعراء والعظماء وقد ابقى لنا البحتري احداها اذ ذكر مرة انه خطي بها فدعا الى ذلك الاجتماع صديق الادباء وعارف قدرهم على بن يحيي المنجم بقوله :

ماذا تقول ولم تزل ذا همة   فضل تقول بها الجميل وتفعل

في فتية بكروا علي تطربا   من اوجه شتى وفيهم دعبل

كما ان اجتماعاته المتواصلة بعبدالله بن طاهر وهو الاديب المعروف لا تحتاج الى تبيان .

ويجب ان يعلم ان شعر دعبل الذي بين أيدينا اليوم لا يحله هذا المحل الذي كان له بين اقرانه ففيه السقط والمرذول ولكن روايتهم بالاتفاق تسمو به الى المكان الرفيع ولما لم يتصل بنا شعره ولا سنه إلا هـذا الرذل فى هجاء اقرانه وهو كثير وإلا القليل فى هجائه الجدي المعني وهو من الطبقة الاولى وإلا هذا الشعر الشيعي الذي لا يباري كالتائية الكبرى مدارس آيات والرائية في قبران في طوس وهذين البيتين فى علي ومقطوعة رثاء الحسين وهي لا تغني ولكنه جهد المقل وعسى ان تمن الايام وتظهر هذه الكنوز .

من اقوالهم

تراجع هذه الاقوال فترى فيها من المتناقضات ما تدهش له وتتعقبها فتذوب امام البوتقـة فاذا هي خبث الحديد فلنبحثهـا على ضوء الحقائق .

« كان دعبل اطروشاً في قفاه سلعة »

اما انه لم يكن أطروشاً فقـد دل عليه انه كان يحب الغناء وانه كان له غلامان قـد سموهما وهما ثقف وثقيف واية لذة للاطروش بالغناء ؟ وجميع من قابلهم لم يظهروا انه كان أطروشاً – أي أصم –

إلا اذا كان امسى اطروشاً في آخر ايامه حين لم يبق له حظ في الغناء .

اما سلعته فقد روي ان دعبلاً نظر في المرآة فضحك فقيل له مم تضحك ؟ فقال رأيت السلعة وهي في عنفقتي فذكرت قول ابي سعد

وسلعة سوء به سلعة ظلمت به فلم ينتصر

فالمفهوم ان السلعة كانت في عنفقته ، فكيف صارت في قفـاه ؟ وهل يستطيع ان يراها بالمرآة اذا لم تكن في وجهه ؟

« كان يشرب الخمر ويسمع الغناء » .

اما انه كان يشرب ويسمع الغناء فقد كان كثير من شبان الكوفة يشربون ويسمعون الغناء وقد روى الرواة له ابياتاً قالها لابي نهشل بن حميد الطوسي وقد نسك بعد فتكه ولزم الحرم .

انما العيش في منـادمة الاخـــوان لا في الجلوس عند الكعاب(١)
وبصرف كأنها السـن البر ق اذا استعرضت رقيق السحاب
ان تكونوا تركتم لذة العيـــش حذار العقاب يوم العقاب
فدعوني وما الذ واهوى وارفعوا بي في صدر يوم الحساب

فاذا كان العيش عند دعبل هذا الذي وصف فيا لخيبة سعية ويا لطـول شقـائه وتعسه . أليبقى وما يلذ ويهوى كان هـذا الجهاد الطويل ؟؟ وهل يحتاج هذا العيش الهين الى ذلك الجلاد والصراع ؟!

اعداده الهجاء : ومثل هذا ما يعزى اليه انه كان يعـد الابيات في الهجاء فاذا سئل قال لا اعلم حظ من يكون . ولماذا هذا الاستعداد والشعر اسبق الى لسانه من كلامه ؟ ما ذاك إلا ليظهروا لؤم دعبل .

قول : يدللون على لؤم دعبل بقول آخر هو اشد منه وينسبونه

---

(١) جمع كعبة ولم تسمع ولـكنها تقاس .

الى محمد ابن الأشعث يقول دعبل « ما كانت لاحد قط عندي منة إلا تمنيت موته » .

ما رأينا من فعل دعبل واخلاصه لاهل البيت وغيرهم مثل هذه الخلال السيئة واللؤم المزري وان هذا الطبع الصافي والعقيدة الراسخة والتسامي الذي رافقه قرنا كاملاً ليربئا به عن هذه المخازي .

اما احاديث عبدالله بن طاهر عنه ففيها نظر وقد فندنا بعضها سابقاً وخصوصاً عندما جعل يعدد مساوءه واحدة واحدة حتى أربى على العشر مبتدئاً بقوله كان الرشيد سبب نعمته فما مات حتى هجاه ، ثم هجا المأمون ، ثم هجا طاهراً ، ثم المعتصم ، ثم ابن أبي داود ، ثم الحسن بن وهب ، ثم انحدر فقال ثم هجا زوجته ، وجاريته ، ثم اخاه وآل بيته ، وهو يورد هذه المخازي ، ولم تسمع له بحسنة عنده .

ثم رأينا شعره في حبه آله الخزاعيين حتى كل اليمنيين وكل هذا الهجاء قد دفعناه واحداً واحداً .

واذا كان جزاء دعبل من اميره وصديقه عبدالله بن طاهر الخزاعي وقد أفرغ عليه مدحه اذا كان هذا جزاؤه منه فلا أدري من منهما كان أهجى للآخر أدعبل أم عبدالله بن طاهر ؟

ثم لابد لنا من خبر آخر وفيه يظهر كرم عبدالله بن طاهر هذا فاذا دعبل يزوره في خراسان بعد ان اصبح والياً عليها بعد ابيه فينادمه ويعطيه كل يوم عشرة الاف درهم وفي كل شهر خمسة عشر يوماً فلما حصل له مائة وخمسون الف درهم توارى دعبل عنه وانقطع عن المنادمة فشق ذلك على عبدالله فكتب دعبل له :

هجرتك لم اهجرك من كفر نعمه   وهل ترتجى فيك الزيادة بالكفر
ولكنني لما اتيتك زائراً   فافرطت في بري عجزت عن الشكر
فان زدت في بري تزيدت جفوة   ولن نلتقي حتى القيامة والحشر

فاذا كانت زيارة واحدة لابن طاهر اكسبته كل هذا المال فكم جمع من الاموال ؟ وروى ابن عساكر لابن طاهر هذا قال :

دخل دعبل على المعتصم فمدحه فقال المعتصم « اسألني ما احببت » فقال دعبل « مائة بدرة » (البدرة عشرة آلاف درهم) فقال تمهلني مائة سنة وتضمن لي اجلي معها قال قد امهلتك ما شئت وخرج مغضباً من عنده فلقي خصياً كان قد عوده ان يدخل مدائحه الى امير المؤمنين ويجعل له سهماً من الجائزة اذا قبضها قال : ويحك اني كنت عند امير المؤمنين واغفلت حاجة لي أن اذكرها له أفأذكرها في أبيات

وتدخلها عليه ؟ قال : نعم ولي نصف الجائزة فما كسه ساعة ثم اجابه الى ان يجعل له نصف الجائزة فاخذ الرقعة وكتب فيها :

بغداد دار الملوك كانت حتى دهاها الذي دهاها
ما غاب عنها سرور ملك دعا (١) الى بلد سواها
ما سرمرا تسرمرا (٢) بل هي بؤس لمن رآها
يارب عجل لها خرابا (٣) برغم انف الذي ابتناها

وختمها ودفعها الى الخصي فادخلها الى المعتصم فلما نظر اليها قال للخصي من صاحب هـذه الرقعة ؟ قال : دعبل يا امير المؤمنين وقد جعل لي نصف الجائزة . فطلب فكأن الارض انطوت عليه فلم يعرف له خبر فقال المعتصم اخرجوا الخصي واجيزوه بالف سوط فانه زعم ان له نصف الجائزة فقد اردنا ان نجيز دعبلاً بالف سوط » .

وهذه الاسطورة لا يخفى اظهار وصفها على اقل باحث فلم يكن دعبل ممن يدخل على المعتصم ويمدحه ولا كان الخصي يقاسم الشعراء

---

(١) في ابن عساكر (اعاده الى) فصححناه .
(٢) وكانت (سامراء تسر من رأى) .
(٣) كانت خزايا بالخاء والزاء وتصحيحها خرابا كما يقتضي .

جوائزهم وكيف اجاز المعتصم كل الجائزة للخصي وليس له إلا النصف ؟

رواية اخرى :

دخل دعبل على عبدالله بن طاهر فانشده وهو ببغداد :

جئت بلا حرمة ولا سبب اليك إلا بحرمة الأدب
فاقض ذمامي فانني رجل غير ملح عليك بالطلب

فانتقل عبدالله ودخل الى الحرم ووجه اليه بصرة فيها الف درهم ورواية ابن عساكر ستين الف درهم وكتب معها .

اعجلتنا فاتاك عاجل برنا ولو انتظرت كثيره لم يقلل
فخذ القليل وكن كانك لم تسل ونكون نحن كاننا لم نفعل

وتكون هذه الرواية حقيقية وعلاقتها هذه العلاقة ويعزو اليه كل هذه الاقاويل ؟!

ومن الروايات النادرة: قال دعبل « كان لي صديق متخلف يقول شعراً فاسداً مرذولا وانا انهاه عنه اذا انشدني ، فانشدني يوماً :

ان ذا الحب شديد ليس ينجيه الفرار
ونجا من كان لا يعشق من ذل المخازي

قلت له هذا لا يجوز، البيت الاول على الراء والثاني على الزاء قال لا تنقطه قلت له الاول مرفوع والثاني مخفوض قال انا اقول له لا تنقطه وهو يشكله فاذا صحت هذه الرواية فما كان اوسع صدره واحتماله واذا كانت من اختراعه فما اعلمه بمخابيء القلوب وبآداب المجلس وسعة التخيل، ولكن درسنا دعبلاً يبعد مثل هذه الروايات عنه .

واغرب رواية وافضحها قول ابن عساكر .

« قيل هجا المعتصم فقتله » ويقول قبلها مات سنة ٢٤٦ هـ ومن له اقل المام بالتاريخ يعلم ان سنة ٢٤٦ هـ هي السنة قبل الاخيرة التي قتل فيها المتوكل فيكون دعبل قد عاش بعد المعتصم كل خلافة الواثق حتى وخلافة المتوكل .

حدث على الأهوار

وكان لهذا الليل من آخر ، ووجد دعبل من يصلبه على خشبته التي حملها عشرات السنين وبطريقة فظيعة جداً ، كأن هذه الغرائب كانت تتعقب هذا الشيخ الذي لم تقو الايام على جسمه ولا نفسه فقد استمر على جلاده المتواصل وقد أشرف على المائة وظل يتطوح في المهالك والاسفار ، ومع تبجحه « وادلني بمسالك الطرق » فقد تطوح وضل ولم يسلم .

وكان ان هجا مالك بن طوق التغلبي هجاء مراً مكرراً ولم اعلم السبب الباعث اليه ، فمنه :

سألت عنكم يا بني مالك   في نازح الارضين والدانية
طراً فلم تعرف لكم نسبة   حتى اذا قلت بني الزانية
قالوا فدع داراً على يمنة   وتلك ها دارهم ثانية

وهو من الهجاء المقذع ومثله من الهجاء المرير :

الناس كلهم يسعى لحاجته   مابين ذي فرج منهم ومهموم

وماتت ظل مشغولا بنسبته يرم عنها خرابا غير مرموم
يبني بيوتاً خرابا لا أنيس بها مابين طوق الى عمرو بن كلثوم

فتعقبه مالك حتى هرب منه الى البصرة وعليها اسحق بن العباس بن محمد ابن علي أحد امراء بني العباس فاشتدت غيرته على النزارية والتى القبض على دعبل يحاسبه بجرم صفح عنه الخلفاء والوزراء والقواد منذ ثلاثين سنة على الاقل - وكم للايام من غرائب ؟

وتخاذل الشيخ امام هذه الحقيقة المرة فجعل يتبرأ من القصيدة اي مما في القصيدة من الابيات التي يفخر بها على قريش والنزارية ويقول ان اعدائي كابي سعد وامثاله هم الذين دسوا هذه المخازي ويحلف حتى اعفاه من القتل ومده وضربه بالعصا وعامله اشد معامله وقام من تحت الضرب وهو بين الحياة والموت . وما اقوى جسم دعبل في هذه السن على احتمال مثل هذا !

ثم هرب منه الى الاهواز وهناك تعقبه مالك بن طوق فبعث رجلاً واعطاه على قتله عشرة آلاف درهم فلم يزل يطلبه حتى وجده في قرية من نواحي السوس فاغتاله بعد صلاة العتمة ضرب ظهر قدمه بعكاز لها زج مسموم فمات من غده .

هكذا انتهت هذه الحياة الطويلة التي رجت أهل زمانها خلفاء وشعراء وعظماء رجاً عنيفاً .

وقد وفى له صديقه البحتري وهو في أوج مجده وقد تذكر نسيبه ابا تمام فقال :

قد زاد في كلفي واوقد لوعتي   مثوى حبيب يوم مات ودعبل
اخوي لم تزل السماء مخيلة   تغشاهما بسماء مزن مسبل
جدث على الاهواز يبعد دونه   مسرى النعي ورمة بالموصل

المراجع

١ الاغاني مجلد ١٨

٢ ابن خلكان مجلد ١

٣ ابن قتيبة كتاب الشعر والشعراء

٤ معجم الادباء لياقوت مجلد ٤

٥ ابن عساكر مجلد ٥

٦ تاريخ بغداد للخطيب مجلد ٨

٧ الكشي معرفة اخبار الرجال

٨ الكامل المبرد مجلد ٢

٩ الفهرست لابن النديم

١٠ الموشح للمرزباني

١١ الكامل لابن الاثير

١٢ المسعودي

١٣ معاهد التنصيص على شواهد التخصيص

١٤ دائرة المعارف الاسلامية باللغة الانكليزية

١٥ مختصر تاريخ العرب للسيد مير علي بالانكليزية

١٦ عصر المأمون للرفاعي مجلد ٣

١٧ الرسالة للسنة الخامسة (١٩٣٧) صفحة ١٥٨٧

١٨ المراجعات للعقاد